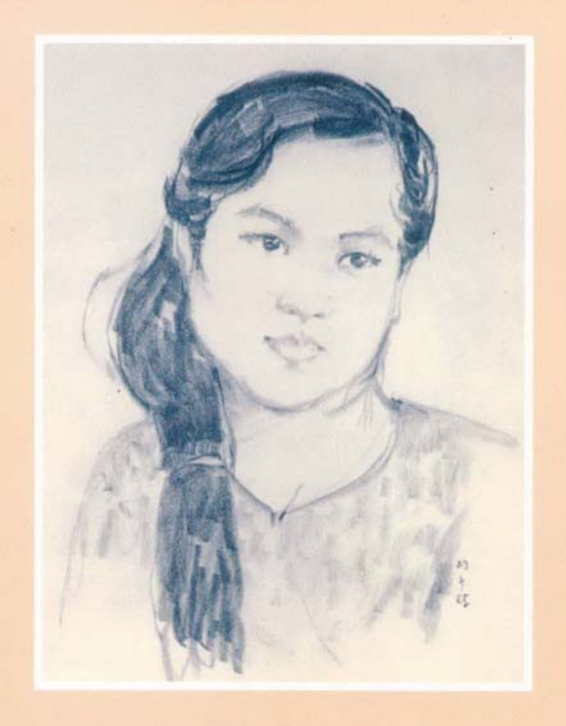
داي سيجي



بالزاك والخيّاطة الصينية الصغيرة



ترجمة: محمد علي اليوسفي



داي سيجي

بالزاك
والخياطة الصينية الصغيرة

الكتاب

بالزاك والخياطة الصينية الصغيرة

تأليف

داي سيجي

ترجمة

محمد علي اليوسفي

الطبعة

الأولى، 2004

عدد الصفحات: 206

القياس: 14.5 × 21.5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

تقديم المترجم

جاء داي سيجي من اللغة الصينية إلى اللغة الفرنسية، كما جاء من السينما إلى الرواية. وفي انتقالاته تلك بعض ما يسِمُ روايته هذه «بالزاك والخيّاطة الصينية الصغيرة».

غادر داي سيجي الصين منذ حوالي عشرين عامًا (خمسة عشر عامًا وقت نشر الرواية). وقد كتب روايته الأولى هذه بعد إخراج عدد من الأفلام الطويلة، من بينها «الصين ألَمي».

اُسْتُقْبِلَت روايته، فرنسيًّا، استقبالاً حسنًا، وفي ذلك الاستقبال الكثير من الشأن الخاص الفرنسي: فالمؤلف صيني كتب بلغة الفرنسيين، ولم يقتصر في ذلك على اللغة وحدها، بل جعل مضمون الرواية - الذي يُقْرأ من عنوانها - محمَّلاً براية الإشعاع الفرنسي، والانفتاح على ثقافات العالم، في مواجهة حظر الكتب الغربية التي صارت تُهرّب تهريبًا، في سوقٍ كانت تقتصر - أيام «الثورة الثقافية» - على مؤلفات ماو تسي تونغ، وأنور خوجة في أحسن الأحوال.

فهل يمكن إدراجُ هذا الكتاب ضمن أدب الانشقاق؟ وهل يمكن التحدّث عن جانب كبير من سيرة ذاتية تتخلل هذه الرواية؛ هي سيرة المؤلف الذي سعى، بدوره، إلى الثقافة

الفرنسية، رغم الحصار الأيديولوجي، حتى وصل إلى فرنسا وأقام فيها، وكتب بلغتها؟

الاستقبال الفرنسي الاحتفائي لا يلغي أهمية هذا الكتاب، الأدبية والسينمائية، وجمعه بين الفنّيْن بأسلوب أخّاذ، أو يجعل تلك الأهمية مسترابة؛ فالسينما حاضرة في طريقة البناء، ضمنيًّا (الوصف وفق حركة الكاميرا، الاعتماد على اللقطات القريبة والبعيدة، تثبيت الصورة أو إبطاؤها أو تسريعها، الخ)، كما تحضر صراحةً سواء عبر ولَه أبطال الرواية بالسينما أم عبر استخدام المؤلف لمصطلحاتها: المشهد، الفرجة، اللقطة، التصوير البطيء، التصوير الصعودي من أسفل إلى أعلى، الخ. فيقول مثلاً على لسان أحد شخوص الرواية: «تمكنت، على الطريقة المسرَّعة في عرض فيلم، من العودة إلى رؤية الحلم الذي أيقظني مذعورًا»، ويصف عملية تعذيب زعيم القرية أثناء قلع سنّه بالقول: «كان مضغوطا أيضا بين يدي الخياط الحديديتين، وهو يمسك بعنقه ويؤلمه ويحشره في وضع جدير بمشهد سينمائي»، وفي بركة الماء، يتحدّث أحد أبطال الرواية قائلاً: «في فردوسنا المائي، المتكون من بركة معزولة ذات مياه عميقة، أظلّ في الأسفل، وأنظر إليها من أسفل إلى أعلى، بشكل عمودي تقريبًا»، وفي المستشفى: «قرّرتُ التظاهر بالغباء، لأغاظتها قليلاً. مكثت أرمقها حتى كررت سؤالها بغباء، فعمدْتُ، ببطء شديد كما في التصوير السينمائي البطيء، إلى وضع يدي اليسرى خلف أذني، مقلّدًا حركة الأصم

الأبكم». ويظهر الأسلوب السينمائي أكثر في الصفحات الأخيرة من الرواية: «لم أصدق عينيَّ: تجمد المشهد في صورة ثابتة. فالفتاة بسترتها الرجالية، وشعرها القصير، وحذائها الأبيض، ظلت جالسة على صخرتها، لا تتحرك، بينما بدا الفتى المتمدد أرضًا ينظر إلى السحب فوق رأسه. لم أقدّر أنهما يتحادثان، أو أنني لم أسمع شيئا على الأقل. ربما كنت أنتظر مشهداً عنيفاً لا يخلو من صراخ، واتهامات، وتوضيحات، وبكاء، وشتائم، لكن لا شيء غير الصمت. ولولا دخان السيجارة المتصاعد من فم ليو، لظننت أنهما تحوَّلاَ إلى تمثالين». ثم «بدأت الصورة الثابتة تتحرّك...».

* * *

إلى ذلك يتميز أسلوب داي سيجي بدقة الوصف غير المملّ وذلك لشحنته السرديّة المحمّلة بمعلومات جديدة أو نظرة انتقادية ساخرة، مع اعتناء خاص باللغة التي تبدو قاموسية أحيانًا، رغم سهولتها وانسيابها، وذلك شأن القادمين الجدد إلى لغة غير اللغة الأم.

بذلك يكتب داي سيجي روايته بالقلم من دون التخلي عن الكاميرا. ولن يخرج كثيرًا إلى تجريب مّا، إلا ما تأتي به عملية المزج بين القلم والكاميرا من مفاجآت. وهو يمزج، في هذا المجال، بين أساليب متعدّدة مرّت بها الرواية في تطوّرها، حتى إنه لن يقطع مع تقليد مخاطبة القارئ في أكثر من مناسبة (أعزائي القراء، تذكّروا، تخيلوا، أؤكد لكم، لو أنكم

شاهدتموني، وهذا ما أقسم لكم عليه! حان الوقت كي أصف لكم الصورة النهائية في هذه الحكاية ...)

يبقى أن تفاصيل الرواية تحيل على الممانعة التي نشأت في رحم الأيديولوجيا المهيمنة في صين ماو تسي تونغ: فها هو ذا الراوي وصديقه يؤديان، بالتناوب، دور شهرزاد الأدب الغربي، والفرنسي تحديدًا، في ممانعة ودفاع عن النفس، وهذه شاعرة مصنَّفة على أنّها «عدوّة للشعب» تتظاهر بحياكة الصوف بينما هي «تكتب قصائد في رأسها»، وهذا ابنها الملقَّب طيلة أحداث الرواية بـ «صاحب النظارة الأنفية» - أي التي تُثبّت على الأنف - من دون أن نعرف اسمه الحقيقي، يخفي حقيبة ملأى بالروايات الغربية (مصدر حبكة الرواية)، وتلك خيّاطة صغيرة سوف يُحوِّلها الاستماع إلى روايات بالزاك تحويلاً جذريًا فتهرب إلى «مدينة كبيرة»، تمامًا مثلما غادر المؤلف، من خارج الرواية هذه المرّة، الصين الواسعة بمساحتها، إلى ثقافة «الآخر»، الأوسع في انفتاحها.

أخيرا نشير إلى أن المؤلف قد نقل روايته هذه إلى السينما. وقد صدرت مؤخرا روايته الثانية بعنوان (عقدة داي) ووصفها النقّاد بأنها نوع من (عقدة أوديب) لكن على الطريقة الصينية. ونالت هذه الرواية جائزة (فيمينا) الفرنسية لسنة 2003.

محمد علي اليوسفي

تونس 15/ 9/ 2003

الفصل الأول

كان زعيم القرية، الشيخ البالغ من العمر خمسين عاماً، يجلس متربعاً وسط الغرفة، قرب الجمر المتقد داخل موقد محفور في الأرض مباشرة؛ ظلّ يراقب كمنجتي. ففي أمتعة «ابنيْ المدينة» كما يعتبروننا، كانت الكمنجة هي الشيء الوحيد الذي يبدو متضوّعاً بنكهة غريبة، ورائحة حضارة جديرة بإثارة ارتياب القرويين.

دنا أحد القرويين ممسكاً بقنديل نفط، لتسهيل مهمة فحص هذا الشيء. رفع الشيخ الكمنجة عمودياً وعاين الثقب الأسود في العلبة، مثل رجل جمارك دقيق يبحث عن مخدرات. لاحظت وجود ثلاث قطرات دم في عينه اليسرى، واحدة كبيرة والأخريان صغيرتان، وكلها ذات لون متشابه، أحمر قان.

رفع الكمنجة إلى مستوى عينيه وهزّها باهتياج، كما لو كان يتوقع سقوط شيء من قاع العلبة الصوتية الأسود. اعتقدتُ أن الأوتار ستنقطع مدمرة، وأن الزخارف سوف تتطاير مهشمة.

كانت القرية كلها حاضرة تقريبا، أسفل هذا البيت المرفوع على أوتاد والضائع على قمة الجبل. رجال و نساء و أطفال يتزاحمون في الداخل، يتمسكون بالنوافذ، يتدافعون أمام

الباب. ولأن شيئا لم يسقط من آلتي، فقد أدنى الشيخ أنفه من الثقب الأسود، و استنشق استنشاقاً عميقًا، حتى لاحتْ شعرات كثيرة وغليظة، طويلة ووسخة، تخرج من منخره الأيسر وبدأت ترتعش.

وما من قرائن جديدة دائما.

مرّر أصابعه الخشنة على وتر، ثم على آخر... أدّى انبثاق رنين مجهول إلى إصابة الحشد بذهول مفاجئ، وكأن ذلك الصوت أجبر كل واحد على التحلي ببعض الاحترام.

- إنها لعبة، أعلن الشيخ بنبرة احتفالية.

هذا الحكم أصابنا، أنا وليو، بالبكم. تبادلنا نظرة خفيّة، لكنها قلقة. كنت أتساءل كيف ستنتهي الأمور.

تناول أحد القرويين «اللعبة» من بين يدي الشيخ، وطرق ظهر الصندوق بقبضته، ثم ناوله إلى شخص آخر. ظلت كمنجتي تدور على الحشد لبعض الوقت. ولم يكن أحد ليعير انتباهه إلى «ابنيْ المدينة»، الهشّيْن، النحيلين، المرهَقيْن، المثيريْن للسخرية. لقد سرنا طيلة النهار عبر الجبل، وغطى الوحل ثيابنا ووجهيْنا وشعرنا. كنا أشبه بجنديَيْن صغيرين رجعييْن في فيلم دعاية حزبية، تمكن حشد من الفلاحين الشيوعيين من أسرهما، بعد معركة خاسرة.

- لعبة مغفلين، قالت امرأة ذات صوت أجش.

- كلا، صحح لها الشيخ، إنها لعبة برجوازية، متأتية من المدينة.

تملكني البرد على الرغم من النار القوية التي تتوسّط الغرفة. سمعت الشيخ يضيف:

ـ يجب حرقها!

فورًا أثار هذا الأمر ردَّ فعل قويّاً لدى الجمهور. بدأ الجميع يتكلمون ويصيحون ويتدافعون: كان كل واحد يحاول الاستيلاء على «اللعبة» كي يتمتع بإلقائها في النار شخصيًّا.

ـ أيها الشيخ، إنها آلة موسيقية، قال لِيُو بنبرة مرحة. أؤكد لك أن صديقي عازف ماهر.

استعاد الشيخ الكمنجة وتفحّصها من جديد. ثم ناولني إيّاها:

ـ آسف، قلت له منزعجًا، أنا لا أعزف جيّدًا.

فجأة رأيت ليو يغمزني. استغربت ذلك وتناولت الكمنجة وبدأت أدوزن الأوتار.

ـ سوف تستمعون إلى سوناتا لموزار، أيها الشيخ، أعلن ليو، من دون التخلي عن هدوئه السابق.

أُصبت بالذهول وظننت أن ليو قد جنَّ: فمنذ بضعة أعوام، مُنعتْ كل أعمال موزار، وكل أعمال الموسيقيين الغربيين، في بلادنا. تجمدت قدماي المبتلتان داخل حذائي المبلل. عدت إلى الارتجاف من البرد الذي تملكني من جديد.

ـ وما معنى سوناتا؟ سألني الشيخ حذراً.

ـ لا أدري، أجبته متلعثماً، شيء غربي.

ـ أغنية؟

ـ تقريباً، أجبته متهرباً.

وعلى الفور لاحت في عيني الشيخ يقظة الشيوعي الصالح، وخالطتْ صوته نبرة عدائية!

ـ وما هو اسم أغنيتك؟

ـ إنها تشبه أغنية، لكنها سوناتا.

ـ سألتك عن اسمها! صاح وهو يحدق في عينيّ مباشرة.

ومن جديد تملكني الخوف من قطرات الدم الثلاث في عينه اليسرى.

ـ موزار... قلت متردّداً.

ـ موزار ماذا؟

ـ موزار يفكر في الرئيس ماو، تابع ليو بدلاً مني.

يا لها من جرأة! لكنها كانت ناجعة: فقد لانت ملامح الشيخ المهددة وكأنه استمع إلى ما يشبه المعجزة وانطبقت جفونه مع ابتسامة عريضة تنضح غبطة.

ـ موزار يفكر في ماو دائما، قال.

ـ نعم، دائماً، أكد ليو.

ما إن داعبتُ أوتار القوس حتى دوّى تصفيق حار ومفاجئ حولي، جعلني أشعر بالخوف تقريباً. بدأت أصابعي الخَدِرَة تتعامل مع الأوتار، وعادت جمل موزار إلى ذهني مثل أصدقاء أوفياء. لانت وجوه القرويين تدريجيّاً ، بعد عبوسها السابق، بتأثير من ألحان موزار الرائقة، تماما مثل الأرض العطشى

تحت المطر. وسرعان ما تلاشت ملامح تلك الوجوه في الضوء المتراقص، والمنبعث من قنديل النفط.

عزفتُ فترة طويلة بينما كان ليو يشعل سيجارة ويدخن بهدوء، مثل رجل.

هكذا مر يومنا الأول من الأيام المخصصة لإعادة تربيتنا وتأهيلنا. كان ليو في الثامنة عشرة من عمره، وأنا في السابعة عشرة.

* * *

بضع كلمات حول موضوع إعادة التأهيل: ذات يوم، خلال نهاية العام 68 أطلق زعيم الثورة العظيم، الرئيس ماو، في الصين الحمراء، حملة سوف تغير البلاد تغييراً عميقاً: أُغلقت الجامعات، وأُرسل «المثقفون الشباب» أي الطلاب الذين أنهوا دراساتهم الثانوية، إلى الأرياف من أجل «إعادة تأهيلهم من قبل الفلاحين الفقراء» (بعد بضعة أعوام، ألهمت هذه الفكرة غير المسبوقة زعيماً ثورياً آسيوياً آخر، وكان كمبودياً أكثر طموحاً وراديكالية، فأرسل كل سكان العاصمة، شيباً وشباناً «إلى الريف»).

ظل السبب الحقيقي الذي دفع بماو تسي تونغ إلى اتخاذ هذا القرار غامضاً: هل أراد التخلص من الحرس الأحمر الذي بدأ يفلت من سيطرته، أم هي مجرد نزوة لحالم ثوري كبير راغب في خلق جيل جديد؟ لا أحد تمكن من الإجابة عن هذا السؤال. في ذلك الوقت كنا، أنا وليو، نتناقش سراً حول

هذا الموضوع مثل متآمرين. وتوصلنا إلى النتيجة التالية: إن ماو يكره المثقفين.

ولم نكن من فئران التجارب الأولى، ولا الأخيرة، في تلك التجربة الإنسانية العظيمة. إذْ وصلنا إلى هذا البيت المعلق على أعمدة، والضائع في أقاصي الجبل، في بداية العام 1971، حيث عزفتُ الكمنجة أمام زعيم القرية. ولم نكن أكثر بؤساً أيضاً. فقد سبقَنا ملايين الشباب، وسوف تلحق بنا ملايين أخرى. ثمة أمر واحد ينطبق على ما يمكن دعوته بسخرية الأقدار: لا أنا، ولا ليو، جئنا من المدرسة الثانوية. بل لم تتوافر أمامنا فرصة الجلوس في صف إحدى الثانويات. كل ما هنالك أننا أنهينا أعوامنا الثلاثة في المدرسة الإعدادية عندما أرسلونا إلى الجبل، كما لو كنا «مثقفين».

كان من الصعب اعتبارنا مثقفين، من دون جريرة الدجل، خصوصاً وأن المعارف التي حصلنا عليها في المدرسة الإعدادية ليست ذات قيمة تذكر: فبين سن الثانية عشرة والرابعة عشرة انتظرنا أن تهدأ الثورة وتعود مدرستنا إلى فتح أبوابها. لكن، ما إن عدنا إليها، في خاتمة المطاف، حتى غمرتنا الخيبة والمرارة: فقد أُلْغيت دروس الرياضيات، وكذلك دروس الفيزياء والكيمياء، وباتت «المعارف الأساسية» تقتصر على الصناعة والزراعة. و كنا نرى، على أغلفة كتب التدريس، صورة عامل يعتمر قبعة، ويشهر مطرقة كبيرة، بساعديْن لا يقلان ضخامة عن ساعدي الممثل ستالوني. وبجانبه تقف امرأة

شيوعية متنكرة في زي فلاحة، وعلى رأسها منديل أحمر. (سَرَتْ آنذاك مزحة مبتذلة بين تلاميذ الإعدادية تقول بأن تلك المرأة عصّبت رأسها بفوطتها الصحية). تلك الكتب الدراسية وكذلك الكتاب الأحمر لماو، ظلت مصدرنا الوحيد للمعرفة. أما كل الكتب الأخرى فقد كانت ممنوعة.

مُنعنا من دخول الثانوية، وأُجبرنا على تنكب دور المثقفين الشباب بسبب أهلنا الذين كانوا يُعتبرون آنذاك من أعداء الشعب، رغم أن خطورة الجرائم الموجهة إليهم لم تكن متشابهة.

كان والداي يمارسان مهنة الطب. فكان أبي مختصاً في أمراض الرئة وأمي مختصة في الأمراض الطفيلية، ويعمل كلاهما في مستشفى شنغدو، وهي مدينة تعدّ أربعة ملايين ساكن. وتتمثل جريمتهما في كونهما يشكلان «سلطة علمية عفنة»، تتمتع بشهرة ذات بعد ريفي متواضع، والحال أن شنغدو هي عاصمة إقليم سيشوان المأهول بمائة مليون نسمة، والبعيد عن بكين، لكنه قريب جدًّا من التبت.

يعتبر والد ليو، مقارنة بوالدي، في منتهى الشهرة، فهو طبيب أسنان معروف في الصين كلها. ذات يوم، قبل الثورة الثقافية، أخبر تلاميذه بأنه أعاد تركيب أسنان ماو تسي تونغ، ومدام ماو، وكذلك أسنان جيانغ جيا شي الذي كان رئيساً للجمهورية قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم. والحقيقة أن إدمان تأمل صورة ماو، يومياً، طيلة أعوام، جعل البعض

يلاحظون أن أسنانه شديدة الاصفرار حتى لتكاد تبدو وسخة، غير أن كل واحد كان يلتزم بالصمت. وفجأة أسرّ طبيبُ أسنان شهير، هكذا على الملأ، أن قائد الثورة العظيم قد استبدل أسنانه بطاقم أسنان؛ وكان ذلك عملاً في منتهى التهور، جريمة خرقاء وغير قابلة للصفح، أسوأ من كشف سرّ يمس بالأمن القومي. ومن سوء حظه أن إدانته كانت أشد لأنه تجرأ على ذكر اسم الزوجين ماو في مستوى واحد مع العفن الأكبر؛ جيانغ جيا شي.

ظلت عائلة ليو تسكن بجوارنا لمدة طويلة، في الطابق نفسه، وهو الثالث والأخير في بناء شُيّد من الآجرّ. وكان ليو الابن الخامس لوالده، والابن الوحيد لأمه.

ولا أبالغ إذا قلت إن ليو كان أفضل صديق في حياتي. كبرنا معًا ومررنا بتجارب كثيرة، بعضها في منتهى القسوة. ولم نكن لنتخاصم إلا نادراً.

لن أنسى المرة الوحيدة التي تعاركنا فيها، حدث ذلك خلال صيف 1968. كان في حوالي الخامسة عشرة، وأنا لم أكمل الرابعة عشرة بعد. كان الوقت ظهرًا؛ وكان ثمة اجتماع سياسي كبير ينعقد في المستشفى الذي يعمل فيه أهلنا، وسط ملعب لكرة السلة في الهواء الطلق. وكان كلانا يعرف أن والد ليو هو موضوع ذلك الاجتماع، وأن إدانة عامة جديدة لجرائمه، تنتظره. وفي حوالي الخامسة طلب مني ليو مرافقته إلى هناك لأن أحداً لم يعد بعد.

- سوف نتعرف على من يدينون والدي ويضربونه، قال لي، وعندما نكبر سوف ننتقم منهم.

كان ملعب كرة السلة المزدحم يعج بالرؤوس السوداء. الطقس حار جداً، ومكبّر الصوت يزعق. أما والد ليو فكان راكعاً وسط منصة، وقد لاحت لوحة إسمنتية كبيرة، وثقيلة جداً، معلقة في رقبته بواسطة سلك معدني ينغرز، ويختفي تقريباً، داخل كمه. وعلى تلك اللوحة كُتب اسمه وجريمته: رجعي.

خيّل إليّ، رغم مسافة الأمتار الثلاثين التي تفصلني عن والده، أنني لمحت على الأرض، وتحت رأسه مباشرة، بقعة سوداء كبيرة. تشكلت من عرقه.

صاح رجل بصوت مهدّد في مضخم صوت:

- اعترفْ بأنك ضاجعت هذه الممرضة!

أحنى الأب رأسه إلى الأسفل أكثر فأكثر، وزاد في الانحناء إلى حد ذهب الظن معه إلى أن رقبته قد ذبحت باللوحة الإسمنتية. لجأ رجل إلى تقريب مضخم الصوت من فمه، وسمع الجميع كلمة «نعم» في غاية الوهن، مرتعشة تقريباً، تخرج من\فمه.

- كيف حدث ذلك؟ زعق المحقق في مضخم الصوت. من منكما كان الأول في لمس الآخر؛ أنت أم هي؟

- أنا.

- وبعد ذلك؟

خيم الصمت لبضع ثوان. ثم صرخ الحشد كما لو حدث ذلك بصوت إنسان واحد:

ـ و بعد ذلك؟

دوّت هذه الصرخة التي كررها ألفا شخص، دويّ الرعد، و حلقت فوق رؤوسنا.

ـ اقتربتُ... ، قال المتهم.

ـ هات المزيد من التفاصيل!

ـ لكن ما إن لمستها، اعترف والد ليو، حتى سقطتُ...... في الغيوم و الضباب.

غادرنا المكان بينما عاد صراخ ذلك الحشد من المحققين المتعصبين ينطلق من جديد. و في الطريق شعرت فجأة بدموع تنهمر على وجهي، عندئذ أدركت كم كنت أحبّ ذلك الجار المسنّ: طبيب الأسنان.

في تلك اللحظة، صفعني ليو، من دون أن ينبس بكلمة. كانت الصفعة مفاجئة إلى درجة كدت معها أسقط أرضاً.

* * *

في العام 1971 لم يعد ابن طبيب الرئة، وصديقه ابن أحد أعتى أعداء الشعب الذي توافرت له فرصة لمس أسنان ماو، سوى مجرد «مثقفيْن شابيْن» من بين مائة فتى وفتاة أرسلوا لهذا الجبل المسمى «فينيق السماء». اسم شاعري، وطريقة طريفة للإيحاء بارتفاعه المريع: فعصافير الدوري المسكينة والطيور الأخرى العادية في السهول لا تستطيع بلوغ ارتفاعه أبداً؛ ولا

يتمكن من ذلك سوى نوع مقترن بالسماء، نوع قوي، أسطوري، يعيش في منتهى التوحد و العزلة.

ما من طريق يؤدي إليه باستثناء درب ضيق يعلو بين كتل الصخور الهائلة والذرى المختلفة الأحجام والأشكال. ومن أجل التوصل إلى تبيّن شبح سيارة، أو سماع بوقها، كعلامة حضارية، أو من أجل التوصل إلى شم رائحة مطعم، ينبغي السير مدة عشرة أيام في الجبل. وعلى بعد حوالي مائة كيلومتر، على ضفة نهر «يا»، تمتد بلدة ينغ جنغ الصغيرة: وهي أقرب مدينة. والغربي الوحيد الذي تمكن من بلوغها هو المبشر الفرنسي الأب ميشال الذي مرّ باحثاً عن ممرّ جديد لبلوغ التبت خلال الأربعينيات.

«إن مقاطعة ينغ جنغ لا تخلو من أهمية وخصوصاً جبلها المسمى «فينيق السماء»، هذا ما كتبه ذلك الأب اليسوعي في دفتر رحلته، «وهذا الجبل معروف بنحاسه الأصفر الذي استخدم في سك العملة القديمة. ويقال إن أحد أباطرة سلالة الهان في القرن الأول، أهدى هذا الجبل إلى عشيقه الذي كان أحد القادة الخصيان في قصره. عندما نظرت إلى ذراه ذات الارتفاع المدرّج والمنبثقة من كلّ مكان، شاهدت درباً ضيقا يرتفع داخل الشقوق الداكنة في الصخور التي تبدو معلقة، ثم متلاشية في الضباب. وكان ثمة بعض العتالين المحملين على طريقة الدواب بحزمات كبيرة من النحاس يشدونها إلى ظهورهم بسيور جلدية، وينزلون الدرب. لكن، قيل لي إن إنتاج

النحاس بدأ بالتراجع منذ زمن طويل، بسبب قلة وسائل النقل أساساً. أما الآن فإن جغرافية هذا الجبل الخاصة دفعت بالسكان إلى زراعة الأفيون. ولقد نُصحتُ بعدم الذهاب إليه: ذلك أن كل مزارعي الأفيون مسلحون. وبعد الحصاد يمضون أوقاتهم في مهاجمة العابرين. لذلك اكتفيت بمشاهدة ذلك المكان المتوحش والمعزول، عن بعد. وقد زادت في قتامته كثافة الأشجار العملاقة والنباتات المتسلقة والأدغال العشبية التي تبدو موضعاً مثالياً لقاطع الطريق الذي يستطيع الانبثاق من الظلال المعتمة ومهاجمة المسافرين».

يعدّ فينيق السماء قرابة عشرين قرية متوزعة على تعرجات الدرب الوحيد، أو مختفية داخل الأودية المعتمة. ومن المعتاد أن تستقبل كل قرية خمسة أو ستة شباب قادمين من المدينة. غير أن قريتنا المعلقة في قمة الجبل، هي أفقرها جميعاً. لذلك لا يمكنها استقبال أكثر من اثنين: أنا وليو.

وبالفعل، فقد جعلوا إقامتنا في البيت المعلق على أعمدة، حيث تفحص زعيم القرية كمنجتي.

هذا البناء العائد إلى القرية لم يشيد من أجل السكنى. وتحت البيت المعلق على أعمدة خشبية توجد حظيرة الخنازير حيث تعيش خنزيرة سمينة، تعود إلى تراثنا هي أيضاً. والبيت في حد ذاته مشيد بخشب خام قديم، من دون طلاء أو سقف، ويستخدم مخزناً للذرة والأرز والأدوات التالفة؛ ويشكل أيضاً مكاناً مثالياً لمواعيد الزنا السرية.

ظل مكان إعادة تأهيلنا من دون أثاث طيلة أعوام. ولا وجود لمائدة أو كرسي. كل ما هنالك سريران مرتجلان يستندان إلى أحد الجدران، في غرفة صغيرة بلا نافذة.

ومع ذلك سرعان ما تحول بيتنا إلى مركز للقرية: فالجميع يأتون بمن فيهم شيخ القرية، بعينه اليسرى المبقعة دائماً بثلاث قطرات من الدم.

ويعود الفضل في ذلك إلى «فينيق» آخر، أصغر بكثير، بل ضئيل تقريباً، وينتمي إلى الأرض أكثر من انتمائه إلى السماء، أما صاحبه فهو صديقي ليو.

* * *

في الواقع لم يكن فينيقاً حقيقياً، بل هو ديك مزهو ذو ريش طاووس، مخضرّ اللون ومحزّز بخطوط زرقاء غامقة. كان يحني رأسه بسرعة، تحت البلور المتسخ قليلاً، وينقر، بمنقاره الآبنوسي الدقيق، أرضاً غير مرئية، بينما يدور عقرب الثواني ببطء على الميناء. بعد ذلك يرفع رأسه، مفتوح المنقار، وينفض ريشه راضياً على ما يبدو، بعد إحساسه بالشبع من نقر حبات أرز خيالية.

كم كان مبّ‌ا لیو صغيراً، بديكه الذي يتحرك كل ثانية! ولا شك أن حجمه الصغير هو الذي أنقذه من تفتيش شيخ القرية لدى وصولنا. كان حجمه لا يتجاوز راحة اليد غير أن جرسه في منتهى الروعة و اللطف.

قبل وصولنا إلى هذه القرية لم يصل لها أي منبّه أو ساعة

يد أو ساعة حائط. و لقد عاش القوم دائماً على إيقاع شروق الشمس وغروبها.

ولقد فوجئنا بالسلطة الحقيقية، شبه المقدسة، التي مارسها المنبّه على القرويين. فالجميع يأتون للاطلاع عليه، كما لو كان بيتنا المرفوع على أعمدة معْبداً. وفي كل صباح تجري الطقوس نفسها: يدور شيخ القرية جيئة و ذهابا حول بيتنا وهو يدخن غليونه المصنوع من الخيزران بطول بندقية قديمة، ولا يشيح بعينيه عن منبّهنا. وفي الساعة التاسعة بالضبط، يطلق من صفارته صفيرا طويلاً ومصمًّا للآذان، لكي ينطلق كل القرويين إلى الحقول.

- لقد حانت الساعة! هل سمعتم؟ يصيح بطريقة طقسية لسكان البيوت القائمة في كل اتجاه. حان وقت العمل، يا عصابات التنابل! ماذا تنتظرون يا أبناء خصى الثيران!

لا أنا، ولا ليو، نحب الذهاب كثيراً للعمل في هذا الجبل ذي الدروب الوعرة، الضيقة، والتي تصعد وتصعد، حتى تختفي في الغيوم؛ الدروب التي يستحيل فيها دفع عربة صغيرة، حيث يشكل الجسم البشري وسيلة النقل الوحيدة.

أما ما يرعبنا أكثر فهو رفع البراز على ظهرينا: فقد تمّ خصّيصاً تصميم وصنع سطول خشبية نصف أسطوانية من حيث الشكل، لنقْلِ كلّ أنواع السماد، البشري والحيواني، ويتوجب علينا، يوميًّا، ملء «سطول الظهور» بالبراز الممزوج بالماء، ورفعه على الظهر، ثم التسلق حتى بلوغ الحقول الكائنة،

عادةً، على ارتفاعات مدوّخة. وفي كلّ خطوة تخطوها تسمع السائل الخرائي يبقبق في السطل، خلف أذنيك مباشرة. وشيئاً فشيئاً يفلت المحتوى النتن من الغطاء وينتشر مائعاً على امتداد بدنك. وأعفيكم، أعزائي القراء، من ذكر مشاهد السقوط، إذ أنّ كل زلة، كما يمكنكم أن تتخيلوا، تكون وخيمة العاقبة.

ذات يوم، ومع بزوغ الفجر، تذكرنا سطليْ الظهر اللذيْن ينتظراننا، فلم نرغب في الاستيقاظ. كنا لا نزال في الفراش عندما سمعنا خطوات الشيخ تقترب. كانت الساعة تدنو من التاسعة وبدأ الديك يومئ بأكل طعامه، عندما خطرت ببال ليو، فجأة، فكرة عبقرية: رفع خنصره، وأدار عقربيْ المنبّه في الاتجاه المعاكس حتى أخّره ساعة كاملة. وهكذا واصلنا نومنا. ما كان أجمل نوم الضحى! لا سيما وأننا كنا نعرف أن الشيخ ينتظر في الخارج ويلف حول البيت جيئة وذهاباً وغليونه الخيزراني في فمه. هذا الاكتشاف الجريء والهائل أدّى، تقريباً، إلى محو حقدنا إزاء مزارعي الأفيون السابقين الذين تحولوا إلى «فلاحين فقراء» تحت الحكم الشيوعي، وباتوا مكلفين بإعادة تأهيلنا.

بعد ذلك الصباح التاريخي، صرنا نلجأ كثيراً إلى تغيير ساعات المنبه. وصار كل شئ يتوقف على حالتنا الجسدية أو على مزاجنا. في بعض المرات نعمد إلى تقديم عقربيْ المنبه بساعة أو ساعتين، بدلاً من تأخيرها، كي ننهي عمل اليوم في وقت أبكر.

وهكذا لم نعد نعرف حقيقة الساعة، وانتهى بنا الأمر إلى فقدان مفهوم التوقيت الحقيقي.

كثيراً ما تنزل الأمطار في «فينيق السماء». ويحدث ذلك عادةً يومين من كل ثلاثة. لكن ليس هناك عواصف أو هطول مدرار، بل أمطار ناعمة، مستمرة وخفيفة، من ذلك النوع الذي يبدو كأنه لن ينقطع أبداً. تتلاشى أشكال الذرى والصخور، حول بيتنا المرفوع على أعمدة، في ضباب كثيف وكثيب، فيبعث فينا ذلك المشهد اللاواقعي في رخاوته شعوراً بالحزن لا سيما وأننا نعيش داخل البيت في رطوبة دائمة وعفونة تلتهم كلّ شئ وتحاصرنا كلّ يوم أكثر. كان ذلك أسوأ من السكن في قعر قبو.

أحياناً لا يتوصل ليو إلى النوم ليلاً. فينهض ويشعل قنديل النفط ثم يتسلل إلى فراشه وهو يدب على أربع، في نصف العتمة، باحثاً عن أعقاب السجائر التي رماها سابقًا. وعندما يعثر عليها، يتربع على سريره. ويجمع الأعقاب المتعفنة في قطعة ورق (كثيراً ما تكون رسالة عزيزة من أهله) فيجففها على شعلة المصباح. بعد ذلك ينفض الأعقاب ويجمع ذُرارة التبغ بدقةِ ساعاتيّ، من دون أن يضيع شيئاً. وما إن ينتهي من لف سيجارته حتى يشعلها ثم يطفئ المصباح. وهكذا يدخن في العتمة جالساً دائماً، منصتاً لصمت الليل الذي يُمزقه قُباع الخنزيرة، تحت غرفتنا مباشرة، وهي تنبش كدس الزبل بفنطيستها.

في بعض الأحيان يستمر المطر أكثر من المعتاد فتتفاقم أزمة نقص السجائر وتمتد أكثر. ذات مرة أيقظني ليو في أوج الليل.

ـ لم أعد أجد أعقاب سجائر، لا تحت السرير، ولا في أي مكان آخر.

ـ وإذن؟

ـ أشعر بالإحباط، أرجوك هلا عزفت لي لحناً على الكمنجة؟

وسرعان ما ألبي طلبه. أعزف من دون أن أكون في حالة صحو كامل. فأفكر في أهلنا، أهله وأهلي: ماذا لو أن طبيب أمراض الرئة، أو طبيب الأسنان العظيم الذي حقق الكثير من المآثر، تمكّنَا هذه الليلة من رؤية شعلة قنديل النفط وهي تنوس في بيتنا المرفوع على أعمدة، لو أنهما استمعا إلى هذا اللحن الصادر عن الكمنجة ممزوجاً بقباع الخنزيرة... لكن ما من أحد. لا وجود حتى لسكان القرية. أقرب جار يسكن على بعد حوالي مائة متر على الأقل.

في الخارج يهطل المطر. ومن باب المصادفة لم يكن الأمر يتعلق بالمطر الناعم المعتاد، بل هو مطر ثقيل، عنيف، يمكن سماعه وهو يخبط قرميد السطح فوق رؤوسنا. ولا شك أن كل ذلك قد ساهم في جعل ليو أكثر إحباطاً: لقد حُكم علينا بتمضية عمرنا كله في إعادة التأهيل. في الأحوال العادية يمكن لشاب منحدر من عائلة طبيعية، تنتمي إلى العمال أو إلى المثقفين الثوريين، أن يتأكد مائة بالمائة، إذا لم يرتكب أية

حماقة، من إنهاء فترة إعادة التأهيل في غضون سنتين، ثم العودة إلى المدينة للقاء عائلته. وذلك وفق ما تنص عليه القوانين الرسمية للحزب. لكن فرص العودة، بالنسبة لأبناء العائلات المصنّفة في خانة «أعداء الشعب»، تعدّ ضئيلة جدّاً: ثلاثة في الألف. وإذا تكلمنا بلغة الرياضيات فإننا، ليو وأنا، نعتبر «هالكيْن» ويظل أمامنا منظور سارٌّ يتمثل في إمكانية أن نصير شيخين مسنّيْن أصلعين، وأن نموت ونكفّن باللون الأبيض المحلي، في بيتنا المرفوع على أعمدة. ثمة، حقاً، أسباب كافية لجعل المرء يشعر بالإحباط والعذاب وعدم القدرة على إغماض العينين.

في تلك الليلة عزفتُ أولاً قطعة لموزار، ثم لبراهمز، وسوناتا لبيتهوفن، غير أن هذا الأخير أيضاً لم يتمكن من رفع معنويات صديقي.

- حاولْ لواحدٍ آخر، قال لي.

- ما الذي تودّ سماعه؟

- شيئاً ما، أكثر مرحاً.

فكرت، ونبشت في ذاكرتي الموسيقية الفقيرة، فلم أجد شيئاً.

عندئذ بدأ ليو يدندن بلازمة ثورية.

- كيف تجد هذا اللحن ؟ سألني.

- جميلاً.

وعلى الفور رافقته بالكمنجة. كانت أغنية من التبت، غيّر

الصينيون كلماتها وجعلوا منها مديحاً للرئيس ماو. رغم ذلك حافظ اللحن على احتفائه بالحياة، وعلى قوته الجامحة. ذلك أن الاقتباس لم ينجح في تشويهه بالكامل. ازدادت حماسة ليو فوقف على فراشه وطفق يرقص دائراً حول نفسه، بينما قطرات غليظة من المطر تزرب داخل الغرفة، عبر قرميد السطح غير الموصول جيداً.

ثلاثة في الألف، فكّرتُ فجأة. مازالت أمامي ثلاث فرص في الألف، بينما لمدخّننا الكئيب، المتنكر في هيئة راقص، فرص أقل من ذلك بكثير. ربما يأتي يوم، يتحسن فيه عزفي على الكمنجة، وتفتح أمامي مجموعة دعاية (بروباغندا) محلية أو إقليمية، على غرار مقاطعة ينغ جنغ مثلا، باب التشغيل وعزف كونشرتوات حمراء. لكن ليو لا يجيد العزف على الكمنجة كما لا يجيد لعبة كرة السلة أو كرة القدم. لا يمتلك أي مؤهل لدخول المنافسة الشرسة المتعلقة بنسبة «الثلاثة بالألف». والأسوأ أنه لا يستطيع حتى الحلم بذلك.

تكمن موهبته الوحيدة في قدرته على رواية حكايات. وهي موهبة مستحبة بالتأكيد، غير أنها هامشية مع الأسف، وليس لها من مستقبل مشجع. فنحن لم نعد في عصر ألف ليلة وليلة. وفي مجتمعاتنا المعاصرة، سواء أكانت اشتراكية أم رأسمالية، لم يعد دور الراوي مهنة.

الشخص الوحيد في العالم الذي قدّر موهبته حق تقدير، وكافأه عليها أحسن مكافأة، هو شيخ قريتنا، آخر السادة

المولعين بالحكايات الشفوية الجميلة.

جبل فينيق السماء في منتهى البعد عن الحضارة، حتى إن معظم السكان لم تتوافر أمامهم فرصة للتفرج على شريط سينمائي طيلة حياتهم، بل إنهم لا يعرفون ما معنى السينما أصلاً. في بعض المرات روينا، أنا وليو، بعض الأفلام لشيخ القرية. فكان لعابه يسيل طمعاً في المزيد. ذات يوم استعلم حول تاريخ موعد العرض الشهري في مدينة ينغ جنغ، وقرر إرسالنا، أنا وليو. تستغرق الرحلة يومين ذهاباً ويومين إياباً. وكان علينا أن نشاهد الفيلم عشية وصولنا إلى المدينة تحديداً. ويتوجب علينا، إثر العودة من المدينة، أن نروي للشيخ ولكل القرويين، أحداث الفيلم كاملة، من الألف إلى الياء، وفق الوقت الفعليّ الذي استغرقته مشاهدة الفيلم تماماً.

استجبنا للتحدي، لكننا، من باب الحذر، حضرنا عرضين متواصلين، في ملعب المدينة الرياضي الذي تم تحويله مؤقتاً إلى سينما في الهواء الطلق. كانت فتيات البلدة في منتهى الروعة، غير أننا ركّزنا على الشاشة، منتبهين للحوار كله، ولأزياء الممثلين، وأدنى الحركات، وديكور كل مشهد، وصولاً إلى الموسيقى.

لدى عودتنا إلى القرية، حدثَ عرض سينمائي لم يسبق له مثيل أمام بيتنا المرفوع على أعمدة. حضره طبعاً كل سكان القرية. توسط الشيخ الصف الأمامي، وغليونه الخيزراني في إحدى يديه، بينما منبهنا ذو «الفينيق الأرضي» في يده

الأخرى، وذلك للتحقق من أدائنا القانوني.

تملكني الوجل، ووجدتني مكتفياً بوصف ديكور كلّ مشهد آلياً. غير أن ليو كشف عن موهبة حقيقية في القص: كان يروي القليل، لكنه يمثل، بالتداول، دور كل شخصية، مغيراً صوته وحركاته.

كان يقود سير أحداث الرواية، ويُحكم استخدام التشويق، ويطرح أسئلة، جاعلاً الجمهور يستجيب ويجيب، ثم يصحّح الأجوبة. لقد أدّى كلّ شيء. وعندما أنهينا، بل عندما أنهى الجلسة، في الوقت المحدد بالضبط، ثارت حماسة جمهورنا السعيد ودهشته العميقة.

- في الشهر القادم، قال لنا شيخ القرية بابتسامة سلطوية، سوف أرسلكم إلى عرض آخر، وتكون أجرتكم معادلة ليوم عمل في الحقول تماماً.

في البداية لاح لنا ذلك لعبة مسلية، ولم نتخيل قط أن حياتنا، أو حياة ليو على الأقل، سوف تنقلب رأساً على عقب.

كانت أميرة جبال فينيق السماء ترتدي حذاء وردياً باهتاً، منسوجاً من الكتان المرن والمتين في آن. ويمكن من خلاله تتبع تحركات أصابع قدميها كلما ضغطت على دوّاسة آلة الخياطة. كان حذاؤها عادياً، بخساً، مصنوعاً يدويًّا، غير أنه يلفت الانتباه ويبدو أنيقاً وثميناً في هذه المنطقة التي يمشي فيها الجميع حفاة تقريباً. كان لعقبيها ولقدميها شكل أخاذ، زاد

في بروزه جوربان من النايلون الأبيض.

وكانت ضفيرة طويلة، يبلغ سمكها ثلاثة أو أربعة سنتمترات، تتدلى على رقبتها وتمتد على ظهرها، ثم تتجاوز وركيها، وتنتهي بشريطة حمراء، في منتهى الجدة، منسوجة من الساتان والحرير المجدولَيْن.

تنحني على آلة الخياطة فتعكس صفيحتها الصقيلة ياقة قميصها الأبيض، ووجهها البيضوي، وبريق عينيها اللتين لا شك أنهما أجمل عينين في مقاطعة ينغ جنغ، إن لم يكن في المنطقة كلها. ثمة وادْ شاسع يفصل قريتها عن قريتنا. أما والدها، فهو الخياط الوحيد في الجبل، ولا يمكث كثيرًا في بيته، ذلك المنزل العتيق الواسع الذي يستخدم كمسكن ودكان في آن. وهو خياط مطلوب كثيراً. فعندما ترغب إحدى العائلات في خياطة ثياب جديدة، تذهب في البداية لشراء القماش من دكان في ينغ جنغ (وهي المدينة التي حضرنا فيها العرض السينمائي)، ثم تأتي إلى دكانه لتتفق معه حول التفصيل والسعر والتاريخ المناسب لخياطة الثياب. وفي الموعد المحدّد تجيء العائلة المعينة منذ الصباح، كي ترافقه بكل احترام، ويكون معها عدة رجال أقوياء يتناوبون على حمل آلة الخياطة على ظهورهم.

كان يملك اثنتين. الأولى التي يحملها معه دائماً من قرية إلى قرية، هي آلة قديمة لم يعد من الممكن قراءة اسمها المكتوب عليها، ولا اسم صانعها. أما الثانية فكانت جديدة،

صنع شنغهاي، ويتركها في البيت، من أجل ابنته، «الخياطة الصغيرة». ولم يكن ليصطحب ابنته قط في جولاته. وهذا القرار الذي يجمع بين الحكمة والقسوة، جعل الكثيرين من القرويين الشباب يعانون من الخيبة في اصطيادها.

ويمكن القول، إنه يعيش حياة مَلكية. فما إن يصل إلى إحدى القرى حتى يدبّ فيها نشاط أهم من حفلة فلكلورية. ويتحول بيت زبونه، حيث يدوّي صوت آلة الخياطة، مركزاً للقرية، وهذا ما يتيح فرصة للعائلة المعنية كي تستعرض غناها. فتطبخ له أفضل وجباتها. أحيانا، عندما تصادف زيارته نهاية السنة، والتحضير للاحتفال بالعام الجديد، يصل الأمر إلى حدّ تشريفه بذبح خنزير. ونظراً لكونه يقيم عند مختلف زبائنه بالتناوب، فإنه كثيراً ما يقضي أسبوعًا أو أسبوعين متتابعين في قرية واحدة.

ذات يوم، ذهبنا، أنا وليو، لزيارة «صاحب النظارة الأنفية» وهو صديق من مدينتنا، يقيم في قرية أخرى. كان الطقس ممطراً فتقدمنا بخطوات حذرة على الدرب الوعر، المنزلق، والمغطى بضباب لبنيّ. وعلى الرغم من حذرنا، سقطنا عدة مرات قابعين في الوحل. فجأة وبعد أحد المنعطفات، لمحنا موكباً يقترب نحونا في صف مستقيم، مع كرسي محمول ومزوّد بنقّالات يتصدر عليه رجل في الخمسين من العمر. وخلف كرسي هذا السيد، يسير رجل محمّل بآلة الخياطة وقد ربطت على ظهره بسيور جلدية. انحنى الخياط

باتجاه حاملي الكرسي وبدا كأنه يستفسر عنا.

لاح لي قصيراً، نحيلاً، مغضّناً، لكن مع حيوية ظاهرة. كان مقعده يشبه هودجاً مختزلاً، وقد ربط إلى غصني خيزران سميكين تم وضعهما متوازيين على أكتاف عتّالَيْن، يسيران، أحدهما في المقدمة، والثاني في الخلف. كان الكرسي والنقالة يصدران أزيزاً مسموعاً على إيقاع خطوات العتالين البطيئة والمُحكمة.

بغتة، ولدى تلاقينا مع الكرسي، مال عليّ الخياط واقترب مني إلى درجة أنني شعرت بأنفاسه:

- way- o- Lin ! صرخ بكل قواه بالإنكليزية.

وانفجر ضاحكاً عندما أدرك أن هزيم الرعد الذي أطلقه بصوته جعلني أنتفض. لقد بدا سيداً إقطاعياً حقيقيًّا وذا نزوات.

- أتعلمان أن خياطنا، في هذا الجبل، هو أكثر إنسان سافر بعيداً؟ سألنا أحد العتالين.

- وصل بي الأمر، في شبابي، إلى حد زيارة يا آن، على بعد مائتي كيلو متر من ينغ جنغ، أخبرنا المسافر الكبير، من دون أن يترك لنا فرصة للجواب، ولقد علّق معلمي آلة موسيقية مثل آلتكما على أحد الجدران من أجل التأثير في زبائنه.

ثم سكت، وابتعد موكبه.

وقرب أحد المنعطفات، التفتَ نحونا، قبل أن يغيب عن ناظرينا، وصاح من جديد:

- way-o-Lin !

وعلى غرار عصابة من الأطفال الأشقياء، انفجروا بالضحك مثل المجانين. ثم انحنوا أرضاً وانطلقوا مواصلين سيرهم. وسرعان ما ابتلع الضباب موكبهم.

بعد بضعة أسابيع دخلنا باحة بيته فيما كلب أسود يرمقنا بنظرته من دون أن ينبح. ودخلنا الدكان. كان الخياط غائباً في إحدى جولاته المعتادة، فتعرفنا على ابنته، الخياطة الصغيرة، وطلبنا منها تطويل سروال ليو خمسة سنتمترات، لأن هذا الأخير، رغم سوء التغذية، وكثرة الأرق، وقلق المستقبل، لم يكفَّ عن الطول.

عندما مثل ليو أمام الخياطة الصغيرة حدّثها عن لقائنا مع والدها في الضباب وتحت المطر، ولم يحرم نفسه من المبالغة الفظة في تقليد نبرة والدها السيئة. فانفجرت بضحكة مرحة. موهبة التقليد في عائلة ليو مسألة وراثية.

لاحظت أن عينيها، عندما تضحك، تكشفان عن طبيعة بدائية، تماماً مثل عيون متوحشات قريتنا. كان لنظرتها بريق حجارة كريمة، لكنه في حالتها الخام، بريق المعدن غير المصقول، ويزداد هذا الأثر قوة بفعل رموشها الطويلة، والزاويتين المسحوبتين في عينيها بنعومة.

- لا تغضبَا منه، قالت لنا، إنه طفل مسن.

فجأة تجهم وجهها وخفضت عينيها. حكّت صفيحة آلة الخياطة بطرف إصبعها.

- ماتت أمي في وقت مبكر. ومذ ذاك لم يعد يفعل إلا ما يسليه.

استدارةُ وجهها المسمرَّة جلية، تكاد تكون نبيلة. ثمة في ملامحها جمال حسّي، مهيب، يجعلنا عاجزين عن مقاومة الرغبة في البقاء بقربها، ورؤيتها تدير آلة الخياطة المصنوعة في شنغهاي.

تستخدم الغرفة كدكان، ومشغل، وقاعة أكل، في آن؛ كانت الأرضية الخشبية وسخة، ويمكن رؤية آثار بصاق، صفراء، أو سوداء، تركها الزبائن في كلّ مكان تقريبا، والتخمين بأن تلك الأرضية لا تنظف يوميّاً. كانت الثياب المنجزة مثبتة في علاقات متدلية على حبل طويل يخترق الغرفة في وسطها. وتوجد أيضاً لفات قماش وألبسة مطوية، مكدسة في الزوايا، وقد هاجمها جيش من النمل. الفوضى، وقلة الاهتمام الجمالي، والاسترخاء التام، هي ما يميز هذا المكان.

لمحت كتاباً مرمياً على مائدة، ودهشت لهذا الاكتشاف في جبل يسكنه أميون؛ لم ألمس صفحة من كتاب منذ دهر. اقتربت منه فوراً، غير أن النتيجة كانت مخيبة بالأحرى: إنه «كاتالوغ» لألوان القماش، نشره معمل للصباغة.

- هل تجيدين القراءة ؟ سألتها.

- ليس كثيراً، أجابتني بتلقائية. لكن لا تعتبرني حمقاء، فأنا أحب الحديث مع الناس الذين يجيدون القراءة والكتابة،

مع شباب المدينة. ألم تنتبه؟ كلبي لم ينبح عندما دخلتما، لأنه يعرف ذوقي.

بدا عليها أنها لا ترغب في تركنا نغادر حالاً. قامت عن منضدتها، أشعلت موقداً معدنياً يتوسط الغرفة ثم وضعت طنجرة على النار وملأتها ماءاً. سألها ليو الذي لم يفارق حركاتها مع كل خطوة تخطوها:

- ماذا ستقدمين لنا، شاياً أم ماءًا مغليّاً؟

- الثاني بالأحرى.

كان في ردّها دليلٌ على محبتها لنا. ففي هذا الجبل عندما يدعوك أحدهم لشرب الماء، يكون معنى ذلك أنه سوف يفقس بيضاً في الماء المغلي ويضيف إليه السكّر، لإعداد حساء.

- هل تعلمين، أيتها الخياطة الصغيرة، خاطبها ليو، بأن بيننا، أنا وأنتِ، نقطة مشتركة؟

- نحن الاثنين؟

- نعم، هل تراهنين؟

- بمَ نراهن؟

- بما شئتِ. أنا لتأكد من استطاعتي البرهنة لك على وجود نقطة مشتركة بيننا.

فكَّرتْ لحظة.

- إذا خسرتُ، سوف أُطوِّل سروالك مجاناً.

- موافق، قال لها ليو، والآن اخلعي فردة الحذاء والجورب عن قدمك اليسرى.

بعد لحظة تردُّد، نفّذت الأمر وهي في منتهى الفضول.

لاحت قدمها أكثر خجلاً منها، لكنها مثيرة حسيًّا، إذ كشفت لنا أولاً، رشاقة في شكلها، ثم عقباً جميلاً، وأظافر لماعة. إنها قدم صغيرة، برونزية، شفافة قليلا، ومعّرقة بالأزرق.

عندما وضع ليو قدمه المتسخة، المسوّدة، العظميّة، قرب قدم الخياطة الصغيرة، لاحظتُ شبهاً بينهما حقًّا: كان إصبعهما الثاني أطول من بقية الأصابع.

* * *

ونظراً لطول طريق العودة غادرنا حوالي الثالثة ظهراً، كي نبلغ قريتنا قبل هبوط الليل.

ونحن على الدرب سألت ليو:

- هل أعجبتك الخياطة الصغيرة؟

تابع طريقه، مطأطئ الرأس، من دون أن يجيبني فوراً.

- هل وقعت في حبها؟ سألته مجدّداً.

- ليست متحضِّرة، على الأقل بالنسبة لي!

كان هناك وميض يتحرك بصعوبة في عمق دهليز طويل، كثيف العتمة. ومن وقت لآخر ينوس ذلك الوميض، يسقط، يستعيد التوازن ثم يتقدم مجدّداً. أحياناً ينحدر الدهليز فجأة ويتلاشى الوميض لحظات طويلة؛ فلا يُسمع عندئذ سوى صرير سلّة ثقيلة مسحوبة فوق الأرض المفروشة بالحصى، وزمجرات يطلقها رجل مع كل جهد يبذله؛ فتدوي في العتمة المطلقة مع صدى يبلغ مسافة هائلة.

فجأة، يعود الوميض إلى الظهور، مثل عين دابة امتص الظلام جسمها فظلت تسير بخطوات طافية كما في كابوس.

إنه ليو، وقد ثبّت سراجاً زيتيّاً على جبينه بواسطة سير جلدي، للعمل في منجم صغير للفحم. وعندما يشتد انحدار السرداب، يزحف ليو على أربع. كان عارياً تماماً وقد تحزم بسير جلدي ينغرز عميقاً في لحمه. ويجرّ، بواسطة تلك العدة الفظيعة، سلّة كبيرة على شكل زورق، ملآى بقطع كبيرة من فحم الأنتراسيت.

عندما يبلغ مستوى ارتفاعي، أنوبُه في العمل. كنت عاريَ الجسم بدوري، وقد غطى الفحم كلّ ثنايا جلدي. أدفع

بالحمولة بدلاً من جرها مثله بواسطة السيور. وكان يتوجب علينا، قبل بلوغ مخرج السرداب، أن نتسلق مرتقى طويلاً وعراً، غير أن السقف كان أكثر ارتفاعا؛ وكثيراً ما يساعدني ليو على الصعود والخروج من النفق، وأحياناً على صبّ محتوى سلتنا فوق كومة من الفحم مكدّسة في الخارج: عندئذ ترتفع سحابة كثيفة من الغبار فنرتمي فيها ونتمدد أرضاً منهكين تماماً.

قديما كان جبل فينيق السماء، كما أسلفت القول، مشهوراً بمناجم النحاس. (وهي المناجم التي نالها شرف دخول تاريخ الصين بوصفها هدية كريمة من أول لوطي صيني رسمي، كان إمبراطوراً) غير أن هذه المناجم هُجرت منذ زمن طويل وانهارت. أما مناجم الفحم فهي صغيرة وبدائية. وقد ظلت إرثاً مشتركاً بين كل القرى. ولم يكفّ استغلالها مادامت تزود سكان الجبال بالطاقة. ومثل غيرنا من شباب المدينة لم نفلت، أنا وليو، من هذا الدرس المدرج ضمن إعادة التأهيل، والذي يدوم شهرين. وحتى نجاحنا في مادة «السينما الشفوية» لم يؤخر هذا الاستحقاق.

والحقيقة أننا قبلنا خوض هذه التجربة الجهنمية رغبة منا في «متابعة السباق» رغم أن فرصتنا في العودة إلى المدينة كانت ضئيلة، إذ إنها لا تمثل إلا احتمالاً يعادل «ثلاثة في الألف». ولم نكن لنتخيل أن هذا المنجم سوف يترك فينا آثاراً لا تمحى، بدنياً، ومعنوياً خاصة، وحتى اليوم، مازالت هذه

الكلمات الفظيعة «منجم الفحم الصغير» تبعث في أوصالي الرعب.

باستثناء المدخل الواطئ المدعوم لمسافة عشرين متراً بعوارض وأعمدة، مصنوعة من جذوع أشجار كيفما اتفق، يظل ما تبقى من النفق، أي أكثر من سبعمائة متر، من دون حماية تذكر. وفي كل لحظة يمكن للصخور أن تهوي على رؤوسنا، ولم يكفّ عمال المنجم الثلاثة المكلفين بحفر الجدران عن تذكيرنا بالحوادث المميتة التي سبقت قدومنا.

وهكذا صارت كل سلة نخرجها من داخل النفق تشبه نوعاً من لعبة الروليت الروسية.

ذات يوم ونحن نصعد المرتقى الطويل، كالمعتاد، دافعين السلة المحمّلة بالفحم، سمعت ليو يقول بجانبي:

- لست أدري لماذا باتت تخامرني هذه الفكرة منذ انتقالنا إلى هنا: أشعر أنني سوف أموت في هذا المنجم.

أصابتني جملته بالخرس. تابعنا عملنا. لكنني أحسست بعرق بارد يتصبب مني فجأة ويغمرني. ومنذ تلك اللحظة انتقلتْ إليّ عدوى الخوف من الموت هنا.

كنا نسكن مع الفلاحين - المنجميين في مهجع، هو عبارة عن كوخ متواضع من الخشب يستند إلى خاصرة الجبل، وقد ضمه نتوء صخري بارز. وكل صباح، عندما أستيقظ أسمع قطرات ماء تسقط من الصخرة على سطح الكوخ المصنوع من لحاء الأشجار، فأردّد في نفسي مرتاحاً بأنني لم أمت بعد. أما

لدى مغادرتي الكوخ فلم أكن متأكداً من عودتي إليه مساءً. وصارت أية علامة، مثل جملة غامضة ينطق بها القرويون، أو دعابة ذات علاقة بالموت، أو أي تغيير في التوقيت، تتخذ أبعاداً تنبؤية في نظري، وتتحول إلى علامة منذرة بموتي.

أحياناً تتملكني رؤىً أثناء العمل. أشعر فجأة بأنني أمشي على أرض طرية، وأتنفس بصعوبة. وما إن يخالجني شك بأن ذلك هو موتي حتى ألمح مشاهد طفولتي تتوالى في مخيلتي بسرعة جنونية، وهذا ما يقال عما يشاهده المحتضرون، عادةً. تشرع الأرض المطاطية في التمطط تحت قدميّ لدى كل خطوة أخطوها، ثم ينفجر دويّ مصّم فوقي، كما لو كان السقف يهوي. ومثل المجنون أزحف على أربع فيما يلوح وجه أمي على خلفية سوداء أمام ناظريّ، يتلوه وجه أبي. يدوم ذلك بضع ثوان، وتتلاشى الرؤيا الهاربة: أجد نفسي في أحد سراديب المنجم، عارياً مثل دودة، دافعاً بحملي نحو المخرج. أثبت نظري في الأرض: وتحت ضوء سراجي الزيتي النائس ألمح نملة مسكينة تتسلق ببطء، وتدفعها إرادة البقاء.

لم يكن نحيباً انفعاليًا، ولا أنينَ ألم صادراً عن جريح، بل كان بكاء جامحاً، متدفقاً بدموع حرّى في العتمة المطبقة. ولدى اصطدام ذلك البكاء بجنبات المنجم، يتحول إلى صدى طويل منبثق من قاع السرداب، يحتدم، يتكثف ثم ينتهي جزءاً من الظلمة العميقة الشاملة. لا شك أنه ليو يبكي.

في نهاية الأسبوع السادس أصيب ليو بداء الملاريا. كنا

ذات ظهيرة نتناول طعامنا تحت شجرة مقابل مدخل المنجم، عندما قال لي إنه يشعر بالبرد. وبعد بضع دقائق طفقت يده ترتجف بقوة، عجز معها عن الإمساك بصحفة الأرز والقضيبين. ولما قام للالتحاق بالمهجع والتمدد على الفراش، سار بخطى مضطربة. بدت عيناه غائمتين. وأمام باب الكوخ المشرع صاح بشخص غير مرئي طالباً منه أن يدعه يدخل.

وأدى ذلك إلى تعالي ضحكات الفلاحين - المنجميين الذين كانوا يتناولون طعامهم تحت الشجرة.

- من عساك تُكلّم؟ سألوه. لا يوجد أحد.

في تلك الليلة، ظل يشكو من البرد رغم كثرة الأغطية فوقه، واتقاد فرن الفحم الذي يدفئ الكوخ.

دار نقاش طويل، بصوت خفيض، ما بين القرويين. وتحدثوا عن نقل ليو إلى ضفة نهر، ثم دفعه في الماء القارس، من دون علمه. ومن شأن الصدمة، في نظرهم، أن تأتي بنتيجة علاجية فورية. غير أن هذا الاقتراح استبعد، خوفاً من رؤيته يغرق في أوج الليل.

خرج أحد القرويين ثم عاد بغصنيْن في يديه، «أحدهما غصن درّاق، والثاني غصن صفصاف» كما أوضح لي. أما الأشجار الأخرى فليست ذات جدوى في مثل هذه الحال. جعل ليو ينهض ثم جردّه من ثيابه. وشرع يجلد ظهره العاري بالغصنيْن.

ـ اضربْ بقوة أكثر! صاح القرويون الآخرون. لن تطرد المرض إذا ضربته بليونة.

كان الغصنان يفرقعان في الهواء، الواحد تلو الآخر، بالتناوب. ازدادت عملية الجَلد سوءاً وبدأت تحفر ندوباً حمراء داكنة في لحم ليو. كان متيقظاً، لكنه يستقبل الضربات من دون ردود فعل خاصة، تماماً كما لو كان يحلم بمشهد يجري فيه جَلد شخص آخر. لم أكن لأعلم ماذا يدور في رأسه، لكنني شعرت بالخوف، وعادت إلى ذهني تلك الجملة الصغيرة التي قالها لي في السرداب قبل بضعة أسابيع، ودوّت كلماتها مع ضجيج فرقعة الجلد: «أشعر أنني سوف أموت في هذا المنجم».

أحس الجلاد الأول بالتعب فطلب من ينوبه لكن أحداً لم يتقدم. غلب النوم الجميع فانطلق القرويون إلى فراشهم طلباً للنوم. انتقل غصنا الدُرّاق والصَفصاف إلى يديّ. رفع ليو رأسه. لاح وجهه شاحباً وجبينه متلألئاً بقطيْرات عرق ناعمة. التقت عيناه الغائبتان بعيني:

ـ هيا، قال لي، بصوت لا يكاد يسمع.

ـ ألا تريد الاستراحة قليلاً؟ سألته. انظرْ إلى يديك كيف ترتعشان. ألا تشعر بهما؟

ـ كلا، قال وهو يرفع إحدى يديه أمام عينيه ليتفحصها. صحيح، أنا أرتجف وأشعر بالبرد، مثل المسنين المشرفين على الموت.

عثرت على عقب سيجارة في جيبي فأشعلته وقدمته له، لكنه سقط من بين أصابعه أرضاً.

ـ عجباً! ما أثقله، قال.

ـ أتريد حقاً أن أضربك؟

ـ نعم، سوف يدفئني ذلك قليلاً.

قبل جلده، أردت التقاط عقب السيجارة أولاً، وتمكينه من سَحْب بضعة أنفاسٍ. انحنيت و تناولت عقب السيجارة الذي لم ينطفئبعد. فجأةً لفت انتباهي شيءٌ ما أبيض؛ كان ظرفاً مرمياً أمام السرير.

التقطته. كان يحمل اسم ليو. لكنه لم يكن مفضوضاً. سألت القرويين عن مأتاه. فأجابني أحدهم وهو على سريره بأن رجلا جاء يشتري الفحم قبل بضع ساعات، وضعه هناك.

فتحت الظرف. كانت الرسالة لا تكاد تتجاوز الصفحة، وقد كتبت بقلم رصاص، وبخط يتقارب حيناً ويتباعد حيناً آخر؛ أما شكل الحروف فقد كان سيئ الرسم. ومع ذلك كانت نعومة أنثوية، وصدقية طفوليّة، تنبثقان من قلة المهارة تلك. وببطء قرأت على ليو :

إلى ليو راوي الأفلام،

لا تسخر من خطي. لم أتعلم في المدرسة الإعدادية مثلك قط. تعرف جيداً أن أقرب مدرسة إعدادية إلى جبلنا، توجد في مدينة ينغ جنغ، و يتطلب الذهاب إليها مسيرة يومين. والدي

هو الذي علمني القراءة والكتابة، وتستطيع تصنيفي ضمن فئة «نهاية الدروس الابتدائية».

سمعت مؤخراً، أنك تروي قصص الأفلام بأسلوبٍ أخاذٍ، مع صديقك. ولقد أخبرتُ شيخ قريتنا بذلك، فوافق على إرسال قرويين اثنين إلى المنجم الصغير، كي يعوضاكما لمدة يومين، بينما تأتيان إلى قريتنا لترويا لنا حكاية فيلم.

أردت الصعود إلى المنجم لأخبركما بالنبأ السار، لكن، قيل لي إن الرجال هناك عراة تماماً، وإن المكان ممنوع على الفتيات.

عندما أفكر في المنجم يتملكني الإعجاب بشجاعتك. وكل ما آمله هو ألا ينهار. لقد تحصّلتُ لكما على يوميْ راحة، أي يومي خطر أقل.

إلى لقاءٍ قريب.

وبلغ سلامي إلى صديقك عازف الكمنجة.

الخياطة الصغيرة

يوم 8/ 7/ 1972

لقد أنهيتُ رسالتي القصيرة، لكنني أفكر في شيء طريف أريد إعلامك به: منذ زيارتكما لي رأيت عدة أشخاصٍ، إصبع قدمهم الثاني أطول من الإبهام، مثلنا تماماً. شعرت بالخيبة. لكن، تلك هي الحياة.

قررنا اختيار حكاية «بائعة الزهور الصغيرة».

فمن بين الأفلام الثلاثة التي شاهدناها في ملعب كرة السلة التابع لمدينة ينغ جنغ، كان الأكثر شعبية يتمثل في ميلودراما كورية شمالية بطلتها الرئيسية تدعى «بائعة الزهور». ولقد روينا حكايتها لسكان قريتنا، وفي نهاية الجلسة عندما نطقتُ بالجملة الختامية مقلّداً الصوت المفخّم والمفعم بالروح الرومانسية والقدرية، مع تذبذب في الحلق: «يقول المثل، يستطيع القلب المخلص جعل الصخرة تزهر. لكن، أخبروني، هل كان قلب «بائعة الزهور» غير مخلص بما فيه الكفاية؟»

لم يكن أثر ﺁلمك في الحاضرين أقل فخامة منه لدى العرض الحقيقي. بكى كل المستمعين إلينا، حتى شيخ القرية، لم يستطع، على الرغم من قسوته، منع الدموع الحرّى عن عينه اليسرى المميّزة دائماً بثلاث قطرات حمراء.

ورغم نوبات الحمى الراجعة اعتبر ليو نفسه في طور النقاهة، وسافر معي إلى قرية الخياطة الصغيرة، مع حماسة فاتح حقيقي. لكنه أصيب بنوبة ملاريا جديدة في الطريق.

ومع أن أشعة الشمس كانت تلفح جسده، فقد اشتكى لي من عودة البرد إليه. وعندما أوقدت ناراً بأغصان وأوراق ذابلة لم ينقص شعوره بالبرد بل صار لا يطاق. قال لي، وهو ينهض مبتعداً عن النار، وأسنانه تصطك:

- هيا بنا نواصل.

استمعنا، طيلة سيرنا على الدرب، إلى هدير سيل، وصياح قرود، وأصوات حيوانات أخرى برية. وشيئاً فشيئاً مرّ ليو بالتناوب المقيت بين نوبتي البرد والحرارة. وعندما رأيته يسير مترنحاً باتجاه الجرف الصخري العميق، الممتد تحت أقدامنا، وكتل التربة تنحدر لدى مروره نحو الأعماق ويطول الانتظار لسماع وقع سقوطها، أوقفتُه وأجلسته على صخرة، منتظراً انتهاء نوبة الحمّى.

لدى وصولنا إلى بيت الخياطة الصغيرة، علمنا، لحسن الحظ، أن والدها قد غادر البيت في جولة من جولاته المعتادة. وكما في الزيارة السابقة جاء الكلب الأسود فتشمّمنا من دون أن ينبح.

دخل ليو بوجه أشد حمرة من ثمرة قرمزية؛ كان يهذي. وصُدمت الخياطة الصغيرة لهول الأضرار التي ألحقتها به الملاريا. وعلى الفور ألغت جلسة «السينما الشفوية» وأدخلت ليو إلى غرفتها ومددته على فراشها المزوّد بكلّة ناموسية بيضاء. لفّت ضفيرتها الطويلة وثبتتها في أعلى رأسها. ثم خلعت حذاءها الوردي، وركضت إلى الخارج حافية.

- تعال معي، صاحت، أعرف شيئاً مجدياً لهذه الحالة.

كانت نبتة عادية، تنمو بجانب جدول صغير، ليس بعيداً عن قريتها. وتشبه شجيرة لا يتجاوز علوّها الثلاثين سنتمتراً، مع زهور ذات لون وردي فاقع، بتلاتها تشبه بتلات زهرة الدّراق، لكن بحجم أكبر، وكانت تنعكس في مياه الجدول الصافية، غير العميقة. أما الجزء العلاجي من النبتة والذي جمعت منه الخياطة الصغيرة الكثير، فيتمثل في أوراقها ذات الزوايا البارزة والحادة على هيئة قوائم بطة.

- ما اسم هذه النبتة ؟ سألتها.

- «شظايا الصحفة المكسورة».

هرست الأوراق في جرن هاون صخري أبيض. وعندما تحولت إلى نوع من العجين المخضوضر، دهنت به معصم ليو الأيسر. ورغم عدم تخلصه من الهذيان فقد استعاد درجة من الأسلوب المنطقي في التفكير. وتركها تضمد زنده بقطعة كتان طويلة بيضاء.

مع حلول المساء هدأ تنفس ليو، ثم استغرق في النوم.

- هل تؤمن بهذه الأمور...، سألتني الخياطة الصغيرة بصوت متردد.

- أي أمور؟

- تلك التي ليست طبيعية تماماً.

- أحياناً نعم، أحياناً لا.

- يبدو أنك تخشى أن أشي بك.

ـ أبداً.

ـ إذن؟

ـ أرى أنه ليس في إمكاننا تصديقها تماماً، ولا نكرانها تماماً.

ظهرت عليها علامات الرضا من موقفي. ألقت نظرة على الفراش الذي ينام عليه ليو وسألتني:

ـ والد ليو، ماذا يكون؟ هل هو بوذي؟

ـ لا أدري. لكنه طبيب أسنان مشهور.

ـ ما معنى طبيب أسنان؟

ـ ألا تعرفين من هو طبيب الأسنان؟ إنه شخص يعالج الأسنان.

ـ بلا مزاح؟ هل تقصد أنه يستطيع إزالة الديدان المختبئة في الأسنان المؤلمة؟

ـ هذا صحيح، أجبتها من دون أن أضحك، وأضفت: وسأعلمك بسرّ أيضاً، لكن يتوجب عليك أن تقسمي على عدم إفشائه لأحد.

ـ أقسم...

ـ والده، قلت لها خافضاً صوتي، أزال الديدان من أسنان الرئيس ماو.

بعد لحظة صمت وإجلال سألتني:

ـ إذا أتيتُ بساحرات يسهرن على راحة ابنه هذه الليلة، ألا يغضب مني؟

كنّ يرتدين تنورات داخلية سوداء وزرقاء، شعرهنّ مزين

بالزهور، وفي معاصمهن دمالج من اليشب. كنّ عجائز أربع، قادمات من ثلاث قرى مختلفة، واجتمعن قرابة منتصف الليل حول ليو الذي مازال نومه مضطرباً. جلستْ كل واحدة في إحدى زوايا الفراش، ومكثن يراقبنه عبر الناموسية. وكان من الصعب الحسم، والحكم على من كانت الأكثر تغضُّناً، أو الأشد بشاعة، أو الأكثر قدرة على بعث الرعب في أوصال الأرواح الشريرة.

إحداهنّ، وهي بالتأكيد الأشد ضموراً، كانت تمسك بقوس ونشاب في يدها:

- أضمن لك، قالت لي، أن الروح الشريرة الساكنة في المنجم الصغير والتي تسببت في آلام صديقك لن تتجرأ على القدوم هذه الليلة. قوسي من التّبت وسهمي ذو حدّ فضّي. عندما أرسله ينطلق مثل مِزمار طائر، يصفّر في الهواء ويذهب ليمزق صدر الشياطين مهما كانت قوتها.

لم تكتمل المهمة على أحسن وجه بسبب أعمارهنّ المتقدمة والساعة المتأخرة، إذ بدأن بالتثاؤب. ورغم الشاي الثقيل الذي أعدَّتْه لهن مضيفتنا فقد غلبهنّ النوم. ونامت صاحبة القوس هي أيضاً. وضعتْ سلاحها على الفراش، وبتثاقل، انطبقت جفونها الرخوة، المطلية بالمساحيق.

- أيقظهنّ، قالت لي الخياطة الصغيرة. احكِ لهن قصة فيلم.

- من أي نوع ؟

- لا أهمية لذلك. ينبغي العمل على إبقائهنّ مستيقظات...

وهكذا بدأتُ أغربَ عرض سينمائي في حياتي. فأمام الفراش الذي استغرق فيه صديقي في نوع من الخمود، رويت أحداث الفيلم الكوري الشمالي لفتاة جميلة وأربع عجائز ساحرات يضيئهن مصباح نفطي بالكاد يشتعل في قرية تحاصرها جبال شاهقة.

تدبرت أمري كيفما اتفق. وخلال بضع دقائق أثارت حكاية «بائعة الزهور» المسكينة انتباه مستمعاتي، حتى أنهن طرحن بعض الأسئلة؛ وكلما تقدمت الحكاية قلّ رفيف رموشهنّ.

غير أن مفعول السحر لم يكن على الدرجة ذاتها كما في أداء ليو. فأنا لم أولد حكواتياً. وأنا لست هو. بعد نصف ساعة من تعب «بائعة الزهور» الباحثة عن قليل من المال، تصل راكضة إلى المستشفى، غير أن أمها تكون قد ماتت بعد أن صرخت يائسة مرددة اسم ابنتها. إنه فيلم دعاية حقيقي. وعادة ما تكمن الذروة الأولى للحكاية في هذه النقطة تحديداً. والناس يبكون في هذه اللحظة بالضبط، سواء أثناء عرض الفيلم، أم عندما روينا أحداثه في القرية. ولعل الساحرات جُبلْنَ من نسيج مختلف. فقد استمعن إليّ بانتباه، مع نوع من التأثر، بل إنني أحسست بقشعريرة صغيرة تدب في أجسامهن، لكنّ الدموع لم تكن على الموعد.

خاب ظني في قدراتي، فأضفت التفاصيل المتعلقة بارتعاش يد الفتاة، والأوراق النقدية التي سقطت من بين أصابعها... لكن مستمعاتي بقين صامدات.

فجأة، ومن داخل الناموسية البيضاء، علا صوت، بدا كأنه آت من قعر بئر.

- يقول المثل، قال ليو بحنجرة متموّجة، إن القلب المخلص يستطيع جعل الصخرة تزهر. لكن، أخبروني هل كان قلب «بائعة الزهور» غير مخلص بما فيه الكفاية؟

نطق ليو بالجملة الختامية للفيلم في وقت أبكر مما يجب، أدهشني أكثر من استيقاظه الفجائي. لكن، يالها من مفاجأة عندما نظرت حولي: كانت الساحرات الأربع يبكين! بدت دموعهن تنبثق بجلال، محطمة كل السدود، متحولة إلى سيول على وجوههن المتغضّنة، المتثلمة.

يا لموهبة الحكواتي التي يتمتع بها ليو! يستطيع التلاعب بالجمهور، بمجرد تغيير موضع الصوت المفخّم، بينما هو يعاني من نوبة ملاريا حادة.

مع تقدّم الحكاية بدأت أشعر بشيء ما يتغيّر لدى الخياطة الصغيرة، أدركت أن شعرها لم يعد مجدولاً في ضفيرة طويلة، بل صار بارزاً مثل عرف غزير، لبدة زاهية تتساقط شلالاً على كتفيها. وخمّنت بما أتاه ليو عندما أخرج يده المحمومة من الناموسية. فجأة هب تيار هوائي وحرك شعلة القنديل، وفي لحظة انطفائها، خُيّل إليّ أنني لمحت الخياطة الصغيرة ترفع جانباً من الناموسية، تنحني على ليو في الظلام، وتقبله قبلة خفية.

أعادت إحدى الساحرات إشعال القنديل، وتابعتُ مطوّلاً

قصّ حكاية الفتاة الكورية. وبذلك لم ينقطع تدفق دموع العجائز مختلطة بالمخاط السائل من مناخرهنّ مع أصوات التمخّط.

الفصل الثاني

لصاحب النظارة الأنفية حقيبة سرية يحرص على إخفائها بعناية كاملة.

كان صديقاً لنا. (تذكّروا، لقد سبق لي ذكر اسمه عندما تحدّثت عن لقائنا بوالد الخياطة الصغيرة في الدرب المؤدية إلى بيت صاحب النظارة الأنفية). أما القرية التي يُعاد تأهيله فيها فقد كانت أقل ارتفاعاً من قريتنا على خاصرة جبل فينيق السماء. أحياناً، نذهب، أنا وليو، إلى بيته، مساءً، كي نطبخ عنده. وذلك عندما نعثر على قطعة لحم أو زجاجة نبيذ، أو عندما نتمكن من سرقة بعض الخضار الجيدة من بساتين الفلاحين. كنا نتقاسم معه دائماً كما لو أننا شكلنا عصابة ثلاثية. لذلك ظل ما يفاجئنا أكثر هو لجوؤه إلى إخفاء حقيبته الغريبة عنا.

تقطن عائلته في المدينة التي يعمل فيها أهلنا. والده كاتب، وأمه شاعرة. ونظراً لغضب السلطات عليهما، مؤخراً، فقد تركا «ثلاث فرص في الألف» لابنهما المحبوب؛ لا أكثر ولا أقل مني، ومن ليو. لكن صاحب النظارة الأنفية يواجه هذا

الوضع اليائس، الناجم عن والديه، بخوف دائم، وهو في سن الثامنة عشرة.

معه يتسربل كلّ شئ بلون الخطر. صار يخالجنا الإحساس بأننا ثلاثة أشرار يجتمعون في بيته، ويتحلقون حول قنديل النفط ، من أجل نسج خيوط مؤامرة. ولنأخذ مسألة الطبخ مثلاً: إذا طرق أحدهم الباب بينما نحن متوغلون في الرائحة الطيبة والدخان المثير، المنبعثيْن من وجبة اللحم اللذيذة التي نعدها بأنفسنا فتزيد من لذتنا الشهوانية، نحن الجائعين الثلاثة، يؤدي به ذلك إلى خوف خارق. يقوم، يخبئ صحن اللحم فوراً في إحدى الزوايا، كما لو أنه كان مسروقاً، ويستبدله بصحن بائس من الخضار المخلّلة، المزبدة، المتعفنة. ذلك أن تناول اللحم يبدو له جريمة خاصة بالبورجوازية التي ينحدر منها أهله.

غداة جلسة السينما الشفوية مع الساحرات الأربع، شعر ليو بالتحسن، وأراد العودة إلى القرية. ولم تلحّ الخياطة الصغيرة كي تستبقينا. أعتقد أنها كانت في منتهى الإرهاق.

بعد تناول الإفطار، سلكنا، أنا وليو، الدرب المنعزل. لدى تعرضنا لهواء الصباح الرطب أحسسنا بالبرودة البليلة تلامس وجهينا الساخنين. كان ليو يدخن سائراً. الدرب ينحدر ببطء ثم يرتفع. وأنا أساعد صديقي العليل بيدي لأن المنحدر وعر. الأرض طرية رطبة؛ وفوق رأسينا تتشابك الأغصان. لدى

مرورنا أمام قرية صاحب النظارة الأنفية، رأيناه يعمل في حقل الأرز؛ كان يحرث الأرض بواسطة محراث يجره ثور جاموس.

ولم تكن هناك أثلام ظاهرة في حقل الأُرز المروي، فالماء الهادئ يغطي طينه الصافي الطري الذي يبلغ عمقه خمسين سنتمتراً. كان حرّاثنا يرتدي تبّاناً، ويتحرك عاريَ الجذع، غائصاً في الطين حتى الركبتين، وراء الجاموس الأسود الذي لاح يجرّ المحراث بمشقّة، بينما أولى أشعة الشمس تنعكس على زجاجتي نظارته الأنفية.

كان لثور الجاموس حجم اعتيادي غير أن ذيله ذو طول غير معتاد. فكان يحركه في كل خطوة، وكأنه يتعمد إرسال الوحل والأوساخ الأخرى على وجه سيده الطيب قليل الخبرة. وعلى الرغم من جهوده الهادفة إلى تلافي ضربات الذيل فإن لحظة شرود واحدة كانت كافية لذيل الجاموس كي يصيبه في الوجه مثل سوط ويقذف بنظارته في الهواء. أطلق صاحب النظارة الأنفية شتيمة، وأفلت العنان من يده اليمنى، والمحراث من يده اليسرى. أدنى يديه الاثنتين من عينيه، أطلق صيحات وشتائم مقذعة، كما لو أصيب بعمى مفاجئ.

كان في حالة من الغضب لم تسعفه بسماع نداءاتنا المبتهجة بلقائه من جديد. فهو يشكو من قصر نظر خطير، وحتى لو زوّى عينيه بأقصى درجة ممكنة ما كان ليتوصل إلى التعرف علينا ونحن على بعد عشرين متراً، فكيف يميزنا عن بقية الفلاحين العاملين في حقول الأُرز المجاورة، والمستهزئين به.

انحنى فوق الماء، وغطّس فيه يديه، وظل يجس الطين حوله مثل أعمى. شعرت بالخوف من عينيه اللتين فقدتا كل تعبير إنساني، ولاحتا جاحظتين كأنهما منتفختان.

لا شك أن صاحب النظارة الأنفية قد أثار الغريزة العدوانية لدى جاموسه. فقد عاد هذا الأخير القهقرى وهو يجر محراثه. بدا كأنه ينوي دوس النظارات بقوائمه أو جعلها تتكسر بسن المحراث.

خلعت حذائي وشمرت سروالي ثم توغلت في حقل الأُرز، تاركاً صديقي المريض جالساً على حافة الطريق. ورغم اعتراض صاحب النظارة الأنفية على تدخلي في بحثه المعقّد عنها، فقد صادف أنني، لدى بحثي العشوائي داخل الطين، دست النظارات. ومن حسن الحظ أنها لم تتكسر.

عندما عاد العالم الخارجي نقياً وصافياً في عينيه، استغرب صاحب النظارة الأنفية حالة ليو وما فعلته به حمى الملاريا.

ـ أنت في حالة بائسة حقاً! قال له.

ونظراً لكونه لا يستطيع مغادرة عمله، فقد اقترح علينا الذهاب للاستراحة في بيته حتى عودته.

يتوسط بيته القرية. ولا يملك إلا القليل من الأغراض الشخصية. وهو يجهد كي يظهر ثقته المطلقة في الفلاحين الثوريين بحيث لا يوصد بابه بالمفتاح قط. كان بيته، وهو مخزن حبوب قديم، مرفوعاً على أعمدة، بدوره، مثل بيتنا، لكنه يتضمن مصطبة إضافية مدعومة بأغصان خيزران غليظة،

وفوقها يتم تجفيف الحبوب والبقول أو أنواع الفلفل. جلسنا، أنا وليو، في المصطبة كي نستفيد من أشعة الشمس. لكنها سرعان ما غربت وراء الجبال، وبدأ الطقس يبرد. وعندما جف عرق ليو أمسى ظهره، وذراعاه، وساقاه النحيلة، متجمدة. وجدت كنزة صوفية عتيقة لصاحب النظارة الأنفية، فوضعتها على ظهره، ولففت كمَّيْها حول عنقه، مثل وشاح.

رغم عودة الشمس ظل ليو يشكو من البرد. رجعت إلى الغرفة واقتربت من السرير ثم تناولت بطانية. لكنني فكرت في البحث عن كنزة أخرى في مكان ما من الغرفة. وتحت السرير اكتشفت وجود صندوق خشبي كبير، يشبه صناديق تعبئة البضائع ذات القيمة الزهيدة، صندوق في حجم حقيبة، لكنه أعمق منها. وفوقه تكدست عدة أزواج من الأخفاف والجوارب المهترئة والمغطاة بالوحل والأوساخ.

عندما فتحته تحت أشعة الضوء التي يتراقص فيها الغبار، تبين لي أنه ممتلئ بالملابس.

وأثناء التفتيش عن كنزة أصغر من غيرها يستطيع جسم ليو النحيل تعبئتها، اصطدمت أصابعي فجأة بشيء ما، ناعم، مرن وأملس، جعلني أفكر مباشرة في حذاء نسائي من جلد أيل.

كلا، لقد كانت حقيبة، وعكست بعض الأشعة، كانت أنيقة، من جلد مهترئ قليلاً لكنه رقيق. حقيبة تنبعث منها رائحة بعيدة للحضارة.

كانت مغلقة بالمفتاح في ثلاثة مواضع. وزنها مريب نسبياً

مقارنة بحجمها. لكنْ استحالتْ عليّ معرفة ما تحتويه.

انتظرت هبوط الليل وتحرّر صاحب النظارة الأنفية من معركته مع جاموسه، لأسأله عن الكنز الثمين الذي يخفيه بعناية فائقة في تلك الحقيبة.

فوجئت بأنه لم يجبني. وطيلة انهماكنا في المطبخ ظلّ ملتزماً بصمت غير معتاد، وتحاشى على الأخص، ذكر أية كلمة تخص حقيبته.

خلال تناول وجبة الطعام عدت إلى طرح السؤال. لكنه لم يقدم أي جواب.

- أعتقد أنها كتُب، قال ليو مقاطعا الصمت. طريقةُ تخبئتها واستخدام أقفال لحفظها كافية لكشف سرّك: من المؤكد أنها تحتوي كتباً محظورة.

لاح بريق هلع في عيني صاحب النظارة الأنفية، ثم تلاشى تحت زجاجتي نظارته، بينما تحول وجهه إلى قناع مبتسم:

- أنت تحلم، يا عزيزي، قال.

مد يده نحو ليو ووضعها على صدغه:

- يا إلهي! ما هذه الحمى! هذا هو سبب هذيانك، ورؤاك الحمقاء. اسمع نحن صديقان ونتسلى جيداً معًا، لكن إذا بدأت تهذيَ وتتحدث عن كتب ممنوعة، اللعنة عندئذ ...

إثر ذلك اليوم اشترى صاحب النظارة الأنفية قفلاً نحاسياً من أحد الجيران. والتزم بالحذر في إغلاق بابه بجنزير يخترق القوس المعدني للقفل.

بعد أسبوعين تمكنت «شظايا الصحفة المكسورة» التي استخدمتها الخياطة الصغيرة علاجاً، من القضاء نهائياً على حمى الملاريا عند ليو. ولما نزع الضمادة التي تلف رسغه لاحظ وجود نُفاطة منتفخة في حجم بيضة عصفور، شفافة ولماعة. بدأت بالذبول تدريجياً. ولم يتبق على جلده سوى ندبة سوداء. فانقطعت نوباته تماماً. طبخنا وجبة في بيت صاحب النظارة الأنفية احتفالاً بشفائه. وفي تلك الليلة نمنا عنده، مضغوطين ثلاثتنا في سريره، الذي مازال يوجد تحته الصندوق الخشبي، كما تأكدت من ذلك، لكن الحقيبة الجلدية اختفت.

* * *

أدّى الانتباه المتزايد لصاحب النظارة الأنفية، وحذره منّا، رغم الصداقة لتي تربط بيننا، إلى تصديق فرضية ليو: لا شك أن الحقيبة ملأى بكتب ممنوعة. تناقشنا، أنا وليو، كثيراً في هذا الشأن، من دون أن نتصور نوعية الكتب الموجودة (في تلك الفترة كانت كل الكتب ممنوعة باستثناء كتب ماو وأنصاره، والكتب العلمية المحض.) وضعنا قائمة طويلة بعناوين محتملة: الروايات الصينية الكلاسيكية منذ الممالك الثلاث المحاربة، وصولاً إلى حلم في جناح القصر الأحمر، مروراً بكتاب جنغ بنغ مي، المعروف بأنه كتاب إثارة جنسية. وهناك أيضاً أشعار ممالك وسلالات تنغ، وسونغ، ومنغ، وكين. وكذلك الرسوم التقليدية لزودا، شي تاو، تنغ كيشنغ...

ولم ننس حتى ذكر اسم التوراة، وتعاليم الحكماء الخمسة، وهو كتاب يُزعم بأنه ممنوع منذ قرون، وفيه يتنبأ خمسة أنبياء من سلالة الهان، انطلاقاً من قمة جبل مقدس، بكل ما سوف يحدث خلال الألفي العام المقبلة.

كثيراً ما نطفئ نور القنديل، حوالي منتصف الليل في بيتنا المرفوع على أعمدة. ويتمدد كلانا على فراشه ليدخن في الظلام. فكانت عناوين كتب عديدة تذوب بين شفاهنا، بعوالمها الغريبة وأسرارها اللذيذة المنبثقة من رنين الكلمات وانتظام الحروف، على طريقة البخور في التبت، إذ يكفي أن تنطق بكلمة «زانغ كسيانغ» حتى تشم رائحة العطر الطيبة اللطيفة، وترى عيدان العطر تتلألأ بعَرقها المندى الذي يلوح، تحت انعكاسات الأنوار، أشبه بقطرات من الذهب السائل.

ذات يوم سألني ليو:

- هل سمعت شيئاً عن الآداب الغربية؟

- ليس كثيراً. أنت تعرف جيداً أن والديَّ لا يهتمان إلا بعملهما. وخارج مجال الطب لا يعرفان الكثير.

- الوضع نفسه بالنسبة لوالديَّ، غير أن عمتي كانت تملك بضعة كتب أجنبية مترجمة إلى الصينية، قبل الثورة الثقافية. أتذكر أنها قرأت في بعض المقاطع من كتاب اسمه دون كيشوت، وهو يروي حكاية فارس هرم لكنه طريف.

- والآن، أين هي تلك الكتب؟

- تطايرت مع الدخان. لقد صادرها الحرس الأحمر، وقاموا

بحرقها أمام الناس، وتحت عمارتها بالضبط، هكذا من دون رحمة!

بقينا بضع دقائق ندخن في الظلام في حزن وصمت. حكاية الأدب زادت في إحباطي: لسنا محظوظين. ففي السنّ التي صرنا نجيد فيها القراءة لم نجد أمامنا ما نقرأ. ولمدة أعوام طويلة لم يكن يوجد في جناح أو رفّ «الآداب الأجنبية»، داخل كل المكتبات، إلا الأعمال الكاملة للقائد الشيوعي الألباني أنور خوجة، وعلى أغلفتها المذهّبة صورة رجل مسنّ له ربطة عنق فاقعة، وشعر شائب ممشط جيداً، يرمقك، تحت جفونه المرتخية، بعين يسرى كستنائية اللون، وعين يمنى أصغر من اليسرى، لونها البني أخفّ، وقزحيتها وردية شاحبة.

- لِمَ تحدثني عن كلّ هذا ؟ سألت ليو.

- الحقيقة أنني أزداد اقتناعاً بأن حقيبة صاحب النظارة الأنفية يمكن أن تكون مملوءةً كتباً من هذا الصنف: آداب أجنبية.

- ربما كنتَ محقاً، فوالده كاتب وأمه شاعرة. لا بد أنهما يملكان الكثير من العناوين الأدبية المتأتية من الغرب، تماماً كما نجد، عند أهلي وأهلك، الكثير من عناوين الكتب الطبية الغربية. لكن، كيف أمكن لحقيبة كتب أن تنجو من الحرس الأحمر ؟

- كان يكفي القليل من الذكاء لإخفائها في مكان ما.

- لقد جازف والداه مجازفة كبيرة إذْ عهدا إليه بالكتب.

- تماماً مثلما حلم والداك ووالداي، دائماً، بأن نصير

طبيبيْن، فإن والديْ صاحب النظارة الأنفية يريدان لابنهما أن يصير كاتباً، من دون شك. وهما يعتقدان بأن من واجبه دراسة هذه الكتب نخفية.

* * *

ذات صباح بارد في أوائل الربيع ندف الثلج لمدة ساعتين من دون انقطاع. وهكذا بلغ ارتفاعه حوالي عشرة سنتيمترات في وقت قصير نسبياً. وبذلك سمح لنا شيخ القرية بيوم راحة. وسرعان ما ذهبنا، أنا وليو، لزيارة صاحب النظارة الأنفية. فقد سمعنا أن مكروهاً حدث له: تهشم زجاج نظارته.

لكنني كنت متأكداً من أن ذلك لن يجعله ينقطع عن العمل. فهو لا يريد من الفلاحين «الثوريين» أن يعتبروا قصر بصره إعاقة جسدية. كما كان يخشى أن يصنفوه كسولاً. وهو يخشاهم دائماً؛ فهم الذين سوف يقررون ذات يوم إن تمت «إعادة تأهيله» أم لا. وهم القادرون، نظريّاً، على تحديد مصيره ومستقبله. وفي هذه الأوضاع يمكن لأي عاهة سياسية أو جسدية أن تكون مشؤومة.

وعلى خلاف سكان قريتنا، لا يرتاح قروِيُّوه رغم نزول الثلج: فقد تولى كلّ واحد حمل سلة عريضة على ظهره لنقل الأرز إلى مخزن المقاطعة البعيد حوالي عشرين كيلومترا عن جبلنا، على ضفة نهر ينبع من التبت. تلك هي ضرائب القرية السنوية؛ ولقد قسم الشيخ وزْن الأُرز الإجمالي على عدد السكان؛ فكانت حصة كل واحد قرابة ستين كيلوغراماً.

لدى وصولنا، وجدنا صاحب النظارة الأنفية، قد فرغ لتوه من تعبئة سلته ويهم بالمغادرة. رميناه بكريات من الثلج، غير أنه التفت صوب كل الاتجاهات، من دون التوصل إلى رؤيتنا بسبب بصره الحسير. لقد أدى غياب النظارة الأنفية إلى جحوظ حدقتيه، حتى باتتا أشبه بعيني كلب بِكينيّ تجمعان بين القلق والبلادة. لقد لاح تائهاً، مجهداً، حتى قبل رفع سلة الأُرز على ظهره.

- أنت مجنون، قال له ليو. لن تستطيع التقدم خطوة واحدة في الدرب الوعر، من دون نظارات.

- لقد كتبتُ رسالة إلى أمي. سترسل لي نظارة جديدة في أقرب وقت ممكن. لكنني لا أستطيع انتظارها مكتوف الذراعين. أنا هنا لأعمل. وهذا هو رأي شيخ القرية على الأقل.

كان يتحدث بسرعة، كأنه لا يريد إضاعة وقته معنا.

- انتظرْ، قال له ليو، لديّ فكرة: سوف ننقل سلّتك إلى مخزن المقاطعة، وفي المقابل تعيرنا بعض الكتب التي تخفيها في حقيبتك، لدى عودتنا. أعْطِ نُعْطِ أليس كذلك ؟

- اذهب إلى الجحيم، أجاب صاحب النظارة الأنفية بقسوة، لست أدري عمّا تتكلم، ليست لدي كتب مخبّأة.

وفي سورة غضبه التقط السلة الثقيلة وحملها على ظهره ثم انطلق.

- كتاب واحد يكفي، صاح ليو. اتفقنا!

ومن دون أن يجيب تابع صاحب النظارة الأنفية طريقه.

كان التحدي الذي تورط فيه يتجاوز حدوده وقدراته الجسدية. وسرعان ما توغل في نوع من الاختبار المازوشي: كان الثلج سميكاً، ويغطي قدميه حتى العقبين في بعض المواضع. وكان الدرب منزلقاً أكثر من المعتاد. لذلك راح يرمق الأرض بعينيه الجاحظتين دون قدرة على تمييز الأحجار البارزة التي يتوجب عليه وضع قدميه عليها. كان يتقدم عشوائيًّا، مترنحاً، مثل سكير. وحين ينحدر الدرب، يلوح باحثاً عن نقطة استناد تلمساً كما اتفق، غير أن ساقه الأخرى لا تتمكن وحدها من حمل ثقل السلة فتنزلق تحته ويسقط على ركبتيه فوق الثلج. حاول الاحتفاظ بتوازنه وهو في ذلك الوضع، أي من دون إسقاط سلته، ثم بدأ يدفع الثلج بساقيه وبذراعيه، فاتحاً طريقه مترًا بعد متر، وأخيراً تمكن من الوقوف.

شاهدناه من بعيد يتعرّج متزحلقاً على الدرب ثم يسقط بعد قليل مرة أخرى. لكن السلة اصطدمت بصخرة لدى سقوطها فارتدّت مجددا ثم عادت إلى السقوط أرضاً.

اقتربنا منه وساعدناه على جمع الأُرز الذي اندلق على الأرض، لم يتكلم أحد. ولم أجرؤ شخصياً على النظر إليه. جلس أرضاً، خلع جزمتيه المملوءتين ثلجاً وأفرغهما. ثم حاول تدفئة قدميه الخدرتين بفركهما بين يديه.

لم يكفّ عن تحريك رأسه كما لو كان شديد الثقل. سألته:

- هل تشعر بألم في رأسك؟
- كلا. أشعر بطنين خفيف في أذنيَّ.

امتلأ كُمّا معطفي بثلوج بلورية خشنة وقاسية لدى انتهائنا من جمع الأُرز وإعادته إلى السلة.

- هل تذهب ؟ سألت ليو.
- نعم، ساعدْني على حمل السلة، قال، أشعر بالبرد، وقد يدفئني قليل من الثقل على ظهري.

تناوبنا، أنا وليو، كل خمسين متراً، لحمل الستين كيلوغراماً من الأُرز حتى المخزن. كنا في غاية الإرهاق.

لدى عودتنا، قدم لنا صاحب النظارة الأنفية، كتاباً ضامراً، بالياً، كتاباً لبالزاك.

«با- إر- زا- كه». لدى ترجمة اسم الكاتب الفرنسي إلى اللغة الصينية صار يشكل كلمة من أربعة رموز. يا لسحر الترجمة! فجأة تلاشى ثقل المقطعين اللفظيين الأولين، والرنينِ الحربي العدواني ذي الصليل. فالرموز الأربعة الرشيقة ذات الخطوط القليلة، اجتمعت لتشكل جمالاً غير معتاد. تنبثق منه نكهة غريبة، حسية، نفاذة مثل رائحة ساحرة لكحول معتّق منذ قرون داخل أحد الأقبية. (بعد مرور أعوام، عرفت أن المترجم كان كاتباً كبيراً، مُنع، لأسباب سياسية، من نشر أعماله الخاصة، فأمضى حياته يترجم أعمال كتّاب فرنسيين).

هل تردد صاحب النظارة الأنفية طويلا قبل أن يختار إعارتنا هذا الكتاب؟ أكانت المصادفة هي التي قادت يده، أم أنه تناوله، بكل بساطة، لأنه يشكل، في حقيبته المملوءة بكنز ثمين، أضمر كتاب، في أسوء حالة؟ هل لعبت الخسة دوراً في اختياره؟ وهو اختيار ظل سببه غامضاً بالنسبة إلينا، وقلَبَ حياتنا، أو قلب على الأقل الفترة التي أمضيناها في إعادة التأهيل، في جبل فينيق السماء.

ذلك الكتاب الصغير كان عنوانه Ursule Mirouet. قرأه ليو

في الليلة ذاتها وأنهاه فجراً. أطفأ القنديل وأيقظني ليسلّمني الكتاب. مكثت في الفراش حتى هبوط الليل، من دون أن آكل. ولم أفعل أي شئ آخر سوى الانغماس في تلك الحكاية الفرنسية الجامعة بين الحب واجتراح المعجزات.

تخيّلوا فتى بكراً في التاسعة عشرة مازال يغفو في تخوم المراهقة ولم يطّلع إلا على الثرثرة الثورية حول الوطنية، والشيوعية والإيديولوجيا والبروباغندا الحزبية. وفجأة يأتي هذا الكتاب الصغير مثل شخص دخيل ويحدثني عن استيقاظ الرغبة، عن الاندفاعات، عن الغرائز، عن الحب، وكل الأشياء التي ظلّ العالم ساكتاً عنها، بالنسبة لي، حتى ذلك الوقت.

ورغم جهلي الكامل بذلك البلد المدعو فرنسا (طرق سمعي أحياناً اسم نابليون، على لسان والدي، وهذا كلّ ما هنالك) فقد بدت لي حكاية أورسولا لا تقل صدقاً عن حكايات جيراني. ولا شك أن قضية الميراث والأموال القذرة قد ساهمت في صدقيتها، وفي رفع قوة تأثير الكلمات. وفي نهاية المطاف أمسيت أشعر أنني أسكن في نيمور، في بيتها، قرب المدفأة المدخنة، برفقة هؤلاء الأطباء والخوارنة... حتى إن القسم المتعلق بالجاذبية المغناطيسية والسير في النوم أو «السرنمة»، بدا لي قابلاً للتصديق والتفاعل.

لم أنهض إلا بعد إنهاء الصفحة الأخيرة. لم يعد ليو إلى البيت بعد. خمنت أنه أسرع، منذ بزوغ الصباح، إلى الدرب

كي يزور الخياطة الصغيرة ويروي لها حكاية بالزاك الجميلة هذه. مكثت لحظة على عتبة بيتنا المرفوع على أعمدة، أتناول قطعة خبز من الذرة، متأملاً شبح الجبل الداكن الذي يواجهنا. كانت المسافة أبعد من أن تمكّنني من تمييز أضواء قرية الخياطة الصغيرة. بدأتُ أتخيل طريقة ليو وهو يروي لها الحكاية، فتملكني شعور بالغيرة. شعور مرّ، مفترس، مجهول.

الطقس بارد. كنت أرتجف في سترتي القصيرة المصنوعة من جلد خروف. كان القرويون يأكلون أو ينامون أو يأتون أعمالاً سرية في الظلام. لكن، هنا، أمام بيتي ما من صوت. كنت أستغل مثل هذا الهدوء المخيم على الجبل كي أؤدي تمارين الكمنجة. أما الآن فإن ذلك يبدو لي محبطاً. عدت إلى الغرفة. حاولت العزف على الكمنجة، لكنها أصدرت صوتاً حاداً، كريهاً، كما لو أن أحدهم عبث بسلم الأنغام. فجأةً أدركت ما ينبغي عليّ فعله.

قررت نقل المقاطع المفضلة حرفياً من رواية بالزاك «أورسولا ميروي». كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي تتملكني فيها رغبة نقل كتاب. بحثت عن الورق في كل مكان من الغرفة، فلم أجد إلاّ بعض الأوراق الخاصة بكتابة الرسائل لأهلنا.

عندئذٍ قررت نقل النص مباشرة على جلد الخروف الذي صُنعت منه سترتي. وكان القرويون قد أهدوني إياها لدى وصولي، بصوفها المتفاوت الطول في الجانب الخارجي،

وجلدها العاري الصقيل من الداخل. أمضيت وقتاً طويلاً في اختيار مقاطع النص، بسبب مساحة سترتي الضيقة، وتلَف بعض أجزائها. نسخت الفصل الذي تسافر فيه أورسولا وهي سائرة في نومها. تمنيت لو كنت مثلها: أن أتمكن، وأنا في فراشي، من رؤية ما تفعله أمي في شقتنا، على بعد خمسمائة كيلومتر، وأن أحضر عشاء والديَّ، وأراقب سلوكهما، وتفاصيل أكلتهما، ولون صحنيهما، وأشم رائحة طبختهما، وأسمعهما يتحاوران... وأكثر من ذلك، تمنيت لو استطعت، على طريقة أورسولا، رؤية أماكن، في الحلم، لم أزرها قط...

الكتابة بقلم حبر جاف على جلد قديم لخروف جبلي، لم تكن مهمة سهلة: كان الجلد كامداً خشناً، ومن أجل نسخ أكبر قدر ممكن من النص كان لا بد من اعتماد خط في منتهى الصغر، الأمر الذي تطلب تركيزاً منقطع النظير. وما إن انتهيت من خربشة النص على كامل سطح الجلد، بما في ذلك الكُمَّان، حتى شعرت بألم شديد في أصابعي وكأنها أصيبت بكسور. وما لبثت أن نمت.

أيقظني وقع خطوات ليو؛ كانت الساعة الثالثة صباحاً. وبدا لي أنني لم أنم طويلاً لأن المصباح كان لا يزال مضيئاً. لمحت ليو يدخل الغرفة من دون وضوح كامل.

ـ أنت نائم؟

ـ لست كذلك حقاً.

ـ انهضْ إذاً لأريك شيئاً.

أضاف قليلاً من الزيت إلى المصباح، وعندما اشتعل الفتيل جيداً أمسك بالمصباح في يده اليسرى واقترب من فراشي ثم جلس على حافته محمرّ العينين منفوش الشعر. وأخرج من جيب سترته قطعة مربعة من قماش أبيض مطوي جيداً.

- فهمت؛ الخياطة الصغيرة أهدتك منديلاً.

لم يجب. لكنني أدركت، وهو يفرد قطعة القماش ببطء، أن الأمر يتعلق برقعة قميص ممزق، لا شك أنه للخياطة الصغيرة، وقد رُتق جزء منه يدوياً.

كانت هناك عدة ورقات متيبسة، ملفوفة داخل قطعة القماش. وكان لها الشكل الجميل ذاته، على هيئة أجنحة فراشات، وبألوان متدرجة من البرتقالي اللامع إلى الرمادي المشوب بصفرة ذهبية فاتحة، لكن الأوراق كلها كانت ملطخة بقطرات دم سوداء.

- إنها أوراق شجرة جنكغو، قال لي ليو بصوت متهدج، شجرة عملاقة رائعة، تنمو في قاع وادٍ سرّي، شرقي قرية الخياطة الصغيرة. هناك مارسنا الجنس واقفيْن، ومستندين إلى جذع الشجرة. كانت عذراء، وسال دمها على الأرض، على الأوراق.

لم أنبس بكلمة واحدة. وعندما توصلتُ إلى استعادة صورة الشجرة وعظمة جذعها ورحابة أوراقها وتشابكها، سألته:

- واقفيْن؟

- نعم، مثل الخيول. ربما لهذا السبب تملكها ضحك قوي، وحشي، بعد ذلك، حتى إنه دوّى في الوادي، وأدى إلى طيران الطيور مذعورة.

* * *

بعد أن أدى كتاب «أورسولا ميروي» دوره في فتح عيوننا، أعدناه في الموعد المحدّد إلى مالكه الأصلي؛ صاحب النظارة الأنفية التي فقدها الآن. وتوهمنا أنه سوف يعيرنا الكتب الأخرى المخفيّة في حقيبته السرية، وذلك مقابل الأعمال الشاقة والمنهكة بدنياً، والتي نؤديها بدلاً منه.

لكنه رفض ذلك. ترددنا عليه كثيراً. حملنا إليه الأكل، غازلناه، دللّناه، عزفنا له الكمنجة... غير أن وصول نظارات جديدة مرسلة من قبل أمه، خلّصه من عماه الجزئي، ووضع حدًّا لأوهامنا.

وكم ندمنا على إعادة الكتاب إليه. حتى أن ليو كرّر في عدة مناسبات قوله «كان علينا الاحتفاظ به. لو فعلنا لقرأته للخياطة الصغيرة صفحة صفحة. وكان من شأن ذلك أن يجعلها أكثر رهافة وثقافة، أنا شديد الاقتناع بذلك».

ادّعى ليو أن قراءة المقتطفات المنسوخة على جلد سترتي هي التي أوحت له بهذه الفكرة. كنا نتبادل ثيابنا كثيراً، وفي أحد أيام الراحة استعار مني ليو سترتي الجلدية كي يذهب لرؤية الخياطة الصغيرة في مكان مواعيدهما، أي شجرة الجنكغو في وادي الحب. قال لي: «بعد أن قرأت لها نص

بالزاك حرفياً، تناولت سترتك، وأعادت قراءته بمفردها، قراءة صامتة. ولم تكن تُسمع سوى الأوراق المرتعشة فوقنا، وهدير سيل بعيد. كان الطقس جميلاً والسماء زرقاء بزرقة لازورد الفردوس. وعندما أنهت القراءة مكثت فاغرة فمها، من دون حركة، وسترتك بين يديها على هيئة المؤمنين المتقدمين بقربان بين أيديهم.

وتابع ليو قائلاً: «هذا العجوز بالزاك ساحر حقيقي وضع يده اللامرئية على رأس هذه الفتاة؛ فخضعت لتحوّل ما، ولبثت حالمة، واستغرق منها ذلك وقتاً قبل أن تعود إلى ذاتها وتضع قدميها على الأرض مجدداً. وانتهى بها الأمر إلى ارتداء سترتك التي واتَتْها على أية حال، وقالت لي إن ملامسة جسدها لكلمات بالزاك قد تكسبها السعادة والذكاء...»

لقد فتننا موقف الخياطة الصغيرة أكثر، فزاد في ندمنا على إعادة الكتاب إلى صاحبه. وتوجب علينا انتظار بداية الصيف كي تلوح لنا فرصة جديدة.

كان ذلك يوم أحد. أشعل صاحب النظارة الأنفية ناراً أمام بيته، ووضع على الموقد طنجرة كبيرة مملوءة ماءاً. وعندما وصلنا، فوجئنا، أنا وليو، بهذا التدبير المنزلي الكبير.

في البداية لم يخاطبنا بأية كلمة. بدا منهكاً، حزيناً. وعندما بدأ ماء الطنجرة يغلي، خلع سترته باشمئزاز وألقى بها فيه، وظل يحافظ على استقرارها في قاع الطنجرة بواسطة عصا طويلة. واستمرّ داخل بخار كثيف، يحرك السترة البائسة في

الماء الذي علتْ سطحه فقاقيع سوداء وبقايا تبغ ورائحة نتنة.
ـ من أجل قتل القمل؟ سألته.
ـ نعم. لقد التقطتُ منه الكثير في جرف المائة متر.

لم يكن اسم ذلك الجرف الصخري غريباً عنا، لكننا لم نزره قط. كان بعيداً عن القرية مسيرة نصف يوم على الأقل.
ـ وماذا ذهبت تفعل هناك ؟
لم يجبنا. ظل يخلع بعناية وترتيب كلاً من قميصه والـ «تي شيرت» والسروال والجوربين، وغطسها في الماء الغالي. لاح جسمه النحيل بعظامه الناتئة، مغطى بحبوب كبيرة حمراء، وجلده مخدوشاً بآثار أظافر. قال لنا صاحب النظارة الأنفية:
ـ قمل ذلك الجرف اللعين سمين جدًا. لقد تمكن أيضاً من وضع بيضه في مواضع الخياطة من ثيابي.
ذهب للبحث عن سرواله القصير داخل البيت ثم عاد. وقبل أن يغطسه في الطنجرة أظهره لنا: يا إلهي! كم في طيات الخياطة من عناقيد! عناقيد من بيض القمل تلمع وكأنها لآلئ في منتهى الصغر. مجرد رؤيتها جعلت القشعريرة تسري في جسمي بكامله؛ من رأسي إلى أخمص قدميّ.
جلسنا، أنا وليو، جنبًا إلى جنب، أمام الطنجرة، وحافظنا على اتقاد النار برمي قطع جديدة من الحطب، بينما صاحب النظارة الأنفية يحرك ثيابه في الماء الغالي بواسطة القضيب الخشبي الطويل. وبعد قليل انتهى به الأمر إلى أن كشف لنا سرّ رحلته إلى جرف المائة متر.

قبل ذلك بأسبوعين استلم رسالة من أمه الشاعرة، المعروفة في إقليمنا بقصائدها الغنائية حول الضباب والمطر والذكريات الخجولة المتعلقة بالحب الأول.وقد أخبرتْه بأن أحد أصدقائها القدامى قد عُيّن رئيس تحرير لمجلة أدبية ثورية. ورغم وضعه غير الثابت فقد وعدها بمحاولة إيجاد وظيفة لصاحبنا ذي النظارة الأنفية في مجلته. وحتى لا ينكشف أمره باعتباره «واسطة» فقد اقترح في البداية أن ينشر مجموعة أغانٍ شعبية يتولى صاحب النظارة الأنفية جمعها من بيئتها، على أن تكون أغانيَ أصيلة متأتية من سكان جبليين، ولا تخلو من صدق ورومانسية واقعية.

ومنذ أن استلم صاحب النظارة الأنفية هذه الرسالة صار يعيش في حلم يقظة. كل شيء تغير فيه. وبدا سابحًا في السعادة للمرة الأولى في حياته. ورفض الذهاب إلى العمل في الحقول من أجل الانطلاق لصيد الأغاني في رحلة فردية متوحدة وبحماسة متوقّدة. وكان واثقًا من إمكانية جمع عدد كبير من الأغاني تتحقق بها وعود ذلك الصديق القديم المعجب بأمه. غير أن أسبوعًا كاملا مرّ من دون أن يتمكن من تسجيل مقطع واحد جدير بالنشر في مجلة رسمية.

كتب إلى أمه ليخبرها بفشله ذارفًا دموع الخيبة. لكن، في لحظة تسليمه الرسالة لساعي البريد، تحدّث هذا الأخير عن شيخ من سكان الجبل يسكن قرب جرف المائة متر: إنه طحان يحفظ كل الأغاني الشعبية في المنطقة. وهو مغنٍّ أمّي قديم

ومُجيد في هذا المجال. وهكذا مزق صاحب النظارة الأنفية رسالته وأسرع إلى رحلة صيد جديدة. قال لنا:

- الشيخ سكير بائس. لم أر في حياتي فقيرا مثله. هل تعرفان ما هي «مازته» مع شرب العرق؟ الحصى! أقسم بحياة أمي! إنه يغمس الحصى بالماء المملّح ثم يضعها في فمه، يقلّبها بين أسنانه ثم يبصقها على الأرض. ويسمي ذلك «كريات اليشب بالصلصة الطاحونية». عرض عليّ تذوقها فرفضت. ولم أضع اعتبارًا لحساسيته. بعد ذلك بلغ به النزق مبلغًا لم يُجْدِ معه كل ما فعلت وقيمة أي مبلغ عرضت. لقد رفض أن يغني لي أغنية واحدة. أمضيت يومين في طاحونته العتيقة آملاً الحصول على بعض الأغاني. نمت ليلة في فراشه، وتغطيت بغطاء يبدو أنه لم يغسل منذ عقود...

كان من السهل علينا تخيّل المشهد؛ ظلّ صاحب النظارة الأنفية في الفراش الذي يعج بآلاف الحشرات، مستيقظًا خشية أن ينطلق الطحان الهرم صدفة، في إنشاد بعض الأغاني الأصيلة والصادقة أثناء حلمه. وخرج القمل من مخابئه لمهاجمته في العتمة؛ فكان يأتي أحياناً لامتصاص دمه، وأحيانا للتزحلق على زجاج نظارته المنزلق، والتي لم ينزعها طيلة الليل. وكلما استدار الشيخ في فراشه أو خوزق أو سعل، كتم صاحب النظارة الأنفية أنفاسه، مستعدًا لإشعال مصباحه اليدوي الصغير كي يسجل المعلومات على طريقة الجواسيس. ثم يعود كل شئ إلى طبيعته ويعود الشيخ إلى شخيره على إيقاع

دواليب طاحونته الدائرة في حركة أبدية.

ـ لديّ فكرة، قال له ليو بنبرة مرحة. هل أنت مستعد لإعارتنا كتبًا أخرى لبالزاك إذا تمكنا من اقتلاع بعض الأغاني من طحّانك؟

لم يجب صاحب النظارة الأنفية على الفور. ثبت عينيه، وراء نظارته المغشاة بالبخار، على الماء المسودّ الذي كان يغلي في الطنجرة كما لو انه انجرّ إلى نوم مغناطيسي بفعل جثث القمل التي كانت تنقلب ما بين الفقاقيع وبقايا التبغ.

وأخيرًا رفع عينيه وسأل ليو:

ـ وكيف تنويان التعامل معه؟

لو أنكم شاهدتموني في ذلك اليوم الصيفي من العام 1973، وأنا في طريقي إلى جرف المائة متر، لحسبتموني خارجا للتوّ من صورة رسمية لأحد مؤتمرات الحزب الشيوعي، أو من صورة زواج «كوادر ثورية». كنت أرتدي سترة كحلية ذات ياقة رمادية غامقة، خاطتها لي خياطتنا الصغيرة. كانت صورة طبق الأصل، حتى في تفاصيلها الصغيرة، من سترات الرئيس ماو، من الياقة إلى شكل الجيوب، مرورًا بالكُمّين المزينّين بثلاثة أزرار صغيرة ذات لون أصفر ذهبي، تعكس الضوء عندما أحرك ذراعيّ. ومن أجل تغطية شعري الفتيّ المنفوش بشكل فوضوي، وضعتْ خياطتنا على رأسي قبعة قديمة تعود إلى والدها، ذات لون أخضر أقرب إلى قبعات ضباط الجيش. إلا أنها كانت ضيقة جدًا.

أما ليو، وكما يتطلب دوره كسكرتير، فقد ارتدى بدلة عسكرية ناحلة اللون، أعارنا إياها قروي شاب أنهى خدمته العسكرية للتو. على صدره تلمع ميدالية حمراء بلون النار يبرز فيها رأس ماو مذهّبًا، وشعره إلى الخلف.

وبما أننا لم نزر ذلك المكان المجهول والمتوحش،

سابقًا، فقد أشرفنا على الضياع والتيه في غابة خيزران. كانت الأشجار تنتصب في كل اتجاه وتشتبك لتطوّقنا لامعة بالمطر، داكنة، رطبة، محمّلة برائحة لاذعة لحيوانات غير مرئية. ومن حين لآخر نسمع طقطقة لطيفة ومثيرة متأتية من نموّ براعم جديدة. ويبدو أن بعض شجيرات الخيزران، من بين الأنواع القوية، تستطيع النمو ثلاثين سنتمترًا في اليوم الواحد.

تلوح طاحونة المغنّي العجوز التي تمتطي السيل المنهمر من صخرة عالية، كأنها معلم أثري شُيِّد بحجارة بيضاء محزَّزة بالأسود، فيما الدواليب العملاقة تئزّ، وتدور في الماء، ببطء ريفيّ حقيقي.

وفيما تهتز الأرض الخشبية في الطابق الأرضي، يمكننا، في بعض المواضع وعبر الألواح الخشبية العتيقة والمهشمة، رؤية الماء متدفقا تحتنا ما بين الصخور الكبيرة. أما صرير الدواليب فكان يرتدّ صداه إلينا ويرنّ في آذاننا. وفي وسط القاعة توقف رجل مسنّ، عاري الصدر، عن رمي الحبوب في الطاحونة كي ينظر إلينا بصمت وحذر. قلت له: «صباح الخير» بلهجة المانداران، (المثقفين) وليس باللهجة السيشوانية المنتشرة في مقاطعتنا، تماما كما في أفلام السينما.

- هو يتكلم بأية لغة؟ سأل ليو مضطربًا.
- باللغة الرسمية، أجابه ليو، لغة بكين، ألا تعرفها؟
- وأين توجد بكين؟

هذا السؤال أصابنا بصدمة. لكن عندما أدركنا أنه لا يعرف

بكين قهقهنا «مثل أخْدَبيْن». وللحظة حسدْته تقريبا على جهله التام بالعالم الخارجي.

- وهل تعني لك بيبنغ شيئًا ما؟ سأله ليو.

- باي بنغ؟ تساءل الشيخ، طبعًا: إنها المدينة الكبيرة في الشمال!

- مرت أكثر من عشرين سنة على تغيير اسم المدينة أيها الجد العزيز، أوضح له ليو. وهذا السيد الذي بجانبي يتكلم اللغة الرسمية المعتمدة في باي بنغ، كما تسميها.

رمقني الشيخ بنظرة ملؤها الاحترام. تأمل سترتي الماوية وأمعن النظر في الأزرار الثلاثة الصغيرة في الكمّين. ثم لمسها بأطراف أصابعه.

- وفيمَ تستخدم هذه الأشياء الصغيرة هنا؟ سألني.

ترْجَم لي ليو سؤاله. وبلهجة المانداران الركيكة أجبت بأنني لا أعلم شيئا عنها. غير أن ترجماني أوضح للشيخ الطحان بأنني قلت إنها شعار الكوادر الثورية الحقيقية.

- هذا السيد القادم من باي بنغ، تابع ليو بهدوء المحتال، جاء إلى المنطقة لجمع الأغاني الشعبية، ويتوجب على كل مواطن يعرف بعض تلك الأغاني أن يبرهن له على ذلك فعليًا.

- تلك الأشياء الجبلية؟ سأله الشيخ وهو يرمقني بنظرة مرتابة. هي ليست أغانيَ، بل مجرد لازمات وأدوار؛ لازمات قديمة متكلسة، أفهمت؟

ـ ما يريده هذا السيد هو تلك اللازمات تحديدًا، مع كلمات ذات قوة بدائية أصيلة.

اجتر الطحان الشيخ هذا الطلب المحدّد، ونظر إليّ بابتسامة ظريفة لا تخلو من خبث.

ـ هل أنت جاد حقًا؟

ـ نعم.

ـ السيد يريد أن أغني له بذاءات حقا؟ لأن أغانينا، كما تعلمان، معروفة جيدًا، إنها...

انقطعت جملته بسبب حضور عدد من القرويين المحملين بسلال على ظهورهم.

تملكني الخوف حقًا؛ وكذلك «ترجماني». همست في أذنه، «هل ننسحب؟» غير أن الشيخ التفت صوبنا وسأل ليو: «ماذا قال؟» شعرت بالخجل. ولكي أخفي ضيقي اندفعت نحو الفلاحين متظاهرًا بمساعدتهم على إنزال سلالهم عن ظهورهم.

كان عدد القادمين الجدد ستة. ولم يسبق لأي منهم الذهاب إلى قريتنا. وما إن تيقنت بأنهم لن يتعرفوا علينا حتى استعدت هدوئي. أنزلوا سلالهم المثقلة بحبوب الذرة الصفراء إلى الأرض من أجل طحنها.

ـ تعالوا أعرّفكم على سيد شاب من باي بنغ، قال الشيخ الطحان لهؤلاء الناس. أرأيتم الأزرار الثلاثة الصغيرة في كمَّيْه؟

تحول الشيخ الناسك إلى شخص آخر أكثر إشراقًا، تناول

معصمي، رفعه في الهواء، وعرضه أمام عيون القرويين، كي يتمتعوا برؤية الأزرار الصفراء الرديئة عن كثب.

ـ أتعرفون ماذا تعني هذه؟ صاح وقد فاح فمه برائحة عرق، إنها رمز الكادر الثوري.

لم أكن لأتوقع أن ذلك الشيخ النحيل جدًّا يملك مثل تلك القوة: لقد كادت يده الخشنة أن تهشم معصمي. وبجانبنا كان ليو المحتال يترجم لي كلماته إلى لغة المانداران ملتزمًا بالجدية التي ينبغي أن يتحلى بها الترجمان الرسمي. وعلى طريقة القادة الذين نشاهدهم في السينما. وجدت نفسي مجبرًا على مصافحة الجميع، وعلى الكلام بلغة مانداران رديئة، مع هزّ الرأس.

لم يسبق لي في حياتي تمثيل مثل ذلك الدور. ولقد ندمت على تلك الزيارة المتستّرة التي اضطررت إليها من أجل إنجاز مهمّة مستحيلة لصالح صاحب النظارة الأنفية؛ ذلك المالك القاسي لحقيبة جلدية.

وفيما كنت أهز برأسي سقطت قبعتي الخضراء، أو بالأحرى قبعة الخياط، على الأرض.

* * *

في النهاية غادر القرويون الطاحونة تاركين جبلاً من حبوب الذرة الصفراء المُعدّة للطحن.

كنت في منتهى الإرهاق لا سيما أن القبعة الضيقة تحولت إلى دائرة نارية تشد على جمجمتي وتصيبني بالصداع.

رافقنا شيخ الطاحونة إلى الطابق الأول، عبر سلم خشبي

صغير تنقصه درجتان أو ثلاث. اندفع نحو سلة من الأسل ليخرج منها وعاء من القرع مملوء بالعرق مع ثلاثة كؤوس.

ـ الغبار هنا أقل، قال لنا مبتسمًا، سنشرب نخبًا.

في هذه الحجرة الواسعة والمعتمة كانت الأرضية كلها، تقريبًا، مغطاة بالحصى، وهو ما يذكّر بـ «كريات اليشب» التي حدثنا عنها صاحب النظارة الأنفية. وكما في الطابق الأرضي لم يكن يوجد أي كرسي أو منضدة أو أي أثاث معتاد في بيت مُعَدّ للسكنى. كل ما هنالك سرير عريض وقد غطى الجدار الذي فوقه جلد فهد، أو نمر، أسود متّموج، وعلقت عليه آلة موسيقية أقرب إلى كمان أوسط من الخيزران ذي ثلاثة أوتار.

على ذلك السرير الوحيد دعانا شيخ الطاحونة للجلوس، إنه السرير الذي ترك ذكرى مؤلمة ودمامل حمراء كبيرة لدى سلفنا صاحب النظارة الأنفية.

التفتُّ صوب ترجماني الذي كان في منتهى الحذر من الانزلاق على الحصى.

ـ أليس من الأفضل أن نجلس في الخارج؟ غمغم ليو الذي فقد هدوءه للمرة الأولى، الغرفة هنا معتمة كثيرا.

ـ لا حاجة للانزعاج.

أشعل الشيخ قنديلا ووضعه وسط السرير. ونظرًا لقلة الزيت فيه فقد خرج للتزود منه. وسرعان ما عاد بقرعة مملوءة زيتا. سكب نصفها في القنديل وترك القرعة على السرير، بجانب قرعة العرق.

جثمنا ثلاثتنا على السرير جالسين على أقدامنا، متحلقين حول القنديل. واحتسينا قدحًا من العرق. على بعد بضعة سنتمترات مني كان الغطاء مطويًا بطريقة اعتباطية في إحدى زوايا السرير، مع ثياب وسخة. وأثناء الشرب أحسست بحشرات صغيرة تتسلق إحدى ساقيّ، تحت السروال. وفي اللحظة التي دسست فيها يدي خلسة، رغم البروتوكول الذي يفرضه وضعي الرسمي، شعرت بأعتداء جديد على ساقي الثانية. وأدركت بسرعة أن تلك الدويبات الضئيلة التي لا يحصى لها عدد كانت تتجمع على جسمي، مفتونة بتغيير نوع الوجبة، جذلى بالوليمة الجديدة التي تقدمها لها أوردتي. ومرت أمام عينيّ الصورة السريعة للطنجرة الكبيرة؛ الطنجرة التي كانت فيها ثياب صاحب النظارة الأنفية، ترتفع، وتنزل، وتنقلب في الماء الغالي، وسط فقاقيع سوداء، لينتهي بها الأمر إلى ترك محلها لسترتي الماوية الجديدة.

تركَنا شيخ الطاحونة وحدنا لحظة، محاصريْن بالقمل، ثم عاد يحمل صحنًا وقدحًا وثلاثة أزواج من القضبان الصغيرة. وضع كل ذلك بجانب القنديل ثم صعد من جديد للجلوس على السرير.

لم نتصور، لا أنا ولا ليو، أن الشيخ سوف يتجرأ على إعادة الخدعة التي مارسها مع صاحب النظارة الأنفية. لكن هيهات، لقد فات الأوان. كان الصحن أمامنا مملوءًا بحصى صغيرة لا قيمة لها، ملساء ذات ألوان متدرجة من الأخضر إلى

الرمادي، فيما كان القدح مملوءًا بماء صافٍ يزيد في شفافيته ضوء القنديل. وفي قعر القدح لاحت بعض الفصوص الكريستالية التي جعلتنا ندرك أننا في حضرة الصلصة المملَّحة. تابع القمل الغازي توسيع مجال تحركاته، ولقد توصل إلى التغلغل تحت قبعتي، فأحسست بشعري ينتصب تحت وطأة الحكاك الذي أصاب فروة رأسي.

ـ تفضّلا، قال لنا الشيخ، هذه وجبتي اليومية: كريات يشب بصلصة المَلح.

وأثناء كلامه تناول قضيبين والتقط بهما حصاة، من الصحن، غمسها في الصلصة، ببطء شبه طقسي، ثم وضعها في فمه، وبدأ يمصها بشراهة. حافظ على الحصاة مطولاً في فمه؛ ولمحتها تنقلب بين أسنانه المصفرّة والمسودّة، ثم بدت كأنها تتلاشى في حنجرته، لتظهر من جديد. بصقها الشيخ من إحدى زاويتيْ فمه وجعلها تتدحرج بعيدًا عن السرير.

بعد لحظة تردُّد تناول ليو قضيبين وتذوق أولى كرياته اليشبية باندهاش ملؤه الإعجاب الممزوج بالشفقة. أما السيد القادم من باي بنغ، وهو أنا، فقد بدأ بتقليدهما. لم تكن الصلصة شديدة الملوحة، وتركت الحصاة في فمي مذاقًا حلوًا قليلا، مع مرارة خفيفة.

لم يتوقف الشيخ عن صب العرق في قدحينا ومطالبتنا بمجاراته واحتسائه في جرعة واحدة، بينما الحصوات المقذوفة من أفواهنا الثلاثة في حركة متكافئة تسقط مصطدمة في بعض

الأحيان بالحصى الذي غطى الأرض، محدثة أصواتا جليّة، خاطفة، مرحة.

كان الشيخ في أحسن حالاته. كما كان متحليًا بحسّ مهني صادق. لذلك، وقبل الشروع في الغناء، خرج لإيقاف الدولاب الذي كان يئز بقوة. ثم أغلق النافذة كي يحسّن من وضع حزامه -حبل من القش المضفور- وأخيرًا تناول آلته ذات الأوتار الثلاثة المعلّقة على الجدار.

- تريدان سماع أدوار قديمة؟ سألَنا.

- نعم. وذلك من أجل مجلة رسمية مهمّة، اعترف له ليو. أنت الوحيد الذي يستطيع إنقاذنا يا عزيزي. وما نريده هو الأغاني الصادقة، الأصيلة، مع نوع من الرومانسية الثورية.

- وما عساها تكون هذه الرومانسية؟

بعد تفكير، وضع ليو يده على صدره، مثل شاهد يدلي بشهادته أمام السماء:

- العاطفة والحب.

وبصمت، جابت أصابع الشيخ العظميّة أوتار الآلة التي احتضنها مثل قيثارة. انبجس نغم أول، ثم أنشد لازمة بصوت لا يكاد يسمع.

ما لفت انتباهنا في البداية هو حركات بطنه التي أخفت صوته تمامًا، وكذلك النغم وكل ما تبقى، للحظات. يا له من بطن مذهل! والحقيقة أنه من شدة نحوله لم يكن له بطن بالمرة بل جلد متغضن بطيّات ضئيلة لا يحصى لها عدّ. وعندما يغني

تستيقظ تلك الطيات وتتحول إلى مويجات ذات مدّ وجزر على بطنه العاري، المحمرّ، البرونزي. وطفق حزامه القشي يتموج بجنون. أحيانا يغرق في موجات جلده المتغضن فلا نتمكن من رؤيته، وما إن نظنه تلاشى نهائياً في حركة المدّ والجزر حتى يطفو من جديد، جليًّا واضحًا، كأنه حزام سحري.

وما لبث صوت الشيخ، الحاد والعميق في آن، حتى دوّى بقوة في الغرفة. كان يغني بعينين مبحرتيْن باستمرار بين وجه ليو ووجهي، بتواطؤ ودّي حينًا، وبثبات زائغ قليلاً، حينًا آخر. وهذا ما غناه:

قلْ لي،
القملة العجوز،
ماذا تخشى؟
تخشى الماء الذي يغلي،
الماء الذي يغلي.
والراهبة الشابة،
قلْ لي،
ماذا تخاف؟
تخاف الراهب الهرم،
وليس سواه.

تملّكتنا ضحكة مجنونة، ليو في البداية، ثم أنا. حاولنا التماسك، لكن الضحكة تعالت، وتعالت، وانتهت بالانفجار. تابع شيخ الطاحونة غناءه مع ابتسامة كبرياء وتموّجات جلده.

غلبنا الضحك حتى سقطنا أرضًا من دون التمكن من الانقطاع.

نهض ليو، وعيناه دامعتان، كي يتناول القرعة ويملأ أقداحنا الثلاثة في حين كان الشيخ المنشد يختم مقطعه الأول، الصادق، الأصيل، والمفعم برومانسية جبلية.

ـ لنشرب أولاً نخب بطنك المهيب، اقترح ليو.

تناول الشيخ قدحه، وسمح لنا بوضع يدينا على بطنه، ثم أخذ يتنفس من دون أن يغني، حتى نتمتع بحركة بطنه الأخاذة. شربنا النخب وأفرغ كلّ منا قدحه في جرعة واحدة. وطيلة اللحظات الأولى لم يصدر أي ردّ فعل منا. فجأة صعد شيء ما في حلقي، شئ غريب حتى أنني نسيت دوري الرسمي وسألت الشيخ بلهجة سيشوانية حقيقية:

ـ ما الذي...

لم أكمل جملتي، لأننا بصقنا، ثلاثتنا، ما كان في أفواهنا في وقت واحد تقريبًا: لقد أخطأ ليو في تمييز القرعة. لم يقدم لنا عرقًا بل سقانا من الزيت المخصص للقنديل.

لا شك أن تلك، كانت هي المرة الأولى التي تنثني فيها شفتا صاحب النظارة الأنفية، في ابتسامة حقيقية تعبر عن السعادة، منذ قدومه إلى جبل فينيق السماء. كان الطقس حارا ونظارته تنزلق على أنفه الصغير المغطى بقطيْرات عرق ناعمة حتى كادتْ، في مناسبتين، أن تسقط وتتهشم أرضًا، بينما كان غاطسًا في قراءة أغاني الشيخ الطحان، الثماني عشرة، والتي دوّنّاها على ورق ملطخ بالصلصة المملحة والعرق والنفط. كنّا، أنا وليو، متمدّديْن على فراشه، من دون تنكّب عناء خلع ثيابنا وحذاءينا. لقد سرنا في الجبل طيلة الليل تقريبًا، واجتزنا غابة خيزران، رافقتنا فيها عن بعد، زمجرة حيوانات لامرئية حتى الفجر، يضاف إلى ذلك إشرافنا على الهلاك من شدة الإرهاق. فجأة، تلاشت ابتسامة صاحب النظارة الأنفية وتجهم وجهه.

- يا للقرف! صاح فينا، لم تدوّنا سوى سخافات.

كان صراخه يجعله أشبه بقائد عسكري حقيقي تملكه غضب جامح. لم تعجبني نبرته لكنني سكتّ. والشيء الوحيد الذي كنا ننتظره منه هو أن يعيرنا كتابًا أو كتابين مكافأة لنا على مهمتنا.

- طلبتَ منا أغانيَ فلاحين أصيلة، ذكّره ليو بنبرة متشنجة.
- يا إلهي! لقد بينت لكم بأنني أريد كلمات إيجابية، مسربلة برومانسية واقعية.

كان صاحب النظارة الأنفية يتكلم ماسكًا بالأوراق بين يديه، محركًا إياها فوق رؤوسنا. فكنا نسمع حفيف الأوراق وصوته الشبيه بصوت مدرّس جاد.

- لمَ تنجذبان دائمًا إلى البذاءات المحظورة، أنتما الاثنين؟
- لا تبالغ، قال له ليو.
- وهل أنا من يبالغ؟ أتريد مني أن أُطلع لجنة الحزب على هذه القذارات؟ سوف يُتّهم طحّانك الهرم فورًا بنشر أغان جنسية، وقد يتعرض للسجن أيضًا، كفى حماقات.

فجأة شعرت بالكره نحوه. لكن الوقت لم يكن مناسبًا للغضب، لقد فضّلت بقاءه عند وعده بإعارتنا بعض الكتب.

- هيّا ماذا تنتظر لتلعب دور الواشي؟ سأله ليو. أما أنا فأحب ذلك الشيخ بأغانيه، وصوته، وحركات بطنه العجيب، وكل كلماته. سوف أعود لأعطيه بعض المال.

كان صاحب النظارة الأنفية جالسًا على حافة السرير، فوضع قدميه النحيلتين والمفلطحتين على المائدة، وقرأ ورقة أو ورقتين.

- كيف قدرْتما على إضاعة وقتكما في تدوين مثل هذه السخافات! أنا لا أصدق ذلك! لا أعتقد أنكما على درجة من الغباء تجعلكما تتصوران أن مجلةً رسمية سوف تنشر

كل هذا؟ بل وتفتح أمامي أبواب التحرير والنشر؟

لقد تغير بشكل غير متوقع منذ استلامه رسالة أمه. وحتى طريقته في مخاطبتنا لم تكن واردة قبل أيام قليلة. لم أكن أتصور أن أملاً ضئيلاً في المستقبل يمكن أن يغير المرء إلى هذه الدرجة، إلى حد جعله مجنونًا تمامًا، ونزقًا، مع الكثير من اختلاط الرغبة والكراهية في نبرة الصوت. لم يظهر منه أي تلميح إلى الكتب التي يتوجب عليه أن يعيرنا إياها. وقف تاركًا الأوراق على الفراش. ثم سمعناه ينصرف إلى تحضير الطعام وتقطيع الخضار في المطبخ. ولم يكف عن الكلام:

- أنصحكما بالتقاط أوراقكما ورميها في النار فورًا، أو إخفائها في جيوبكما. لا أريد رؤية مثل تلك القذارات المحظورة مرمية في بيتي، وعلى فراشي!

التحق به ليو إلى المطبخ:

- أعطنا كتابًا أو كتابين وسوف نذهب.

- أية كتب؟ سمعتُ صاحب النظارة الأنفية يسأله متابعًا تقطيع الكرنب أو اللفت.

- تلك التي وعدتنا بها.

- أنت تسخر مني أم ماذا؟ لقد جلبتما لي أشياء مخزية لا يمكنها أن تجلب لي إلا المتاعب! وفوق ذلك تجرّأتما على تقديم كل ذلك وكأنه...

فجأة سكتَ، أسرع نحو الغرفة والسكين في يده. جمع الأوراق المبعثرة فوق السرير، اقترب من النافذة كي يستفيد من

الضوء أكثر، وأعاد قراءة الأوراق.

- يا إلهي! لقد نجوت، هتف بصوت عال. يكفي أن أحوّر قليلاً في الكلمات وأضيف بعض المفردات، وأحذف بعضها... دماغي يعمل أفضل من دماغيْكما. لا شك أنني أذكى منكما!

ومن دون التفكير أكثر، أُطْلَعنا على نموذج من صياغته المقتبسة والمزوّرة، من خلال مطلع أول:

قلْ لي،
القمل البرجوازي الصغير،
ماذا يخشى؟
يخشى غليان موجة البروليتاريا.

وقفتُ في هبّة متوفزة وارتميت عليه. أردت افتكاك الأوراق منه فحسب، في سورة غضب، غير أن حركتي تحولت إلى لكمة أصابت وجهه بقوة وجعلته يترنح. اصطدمتْ مؤخرة رأسه بالجدار، فقفز وسقط سكينه وبدأ أنفه ينزف. أردت استرجاع أوراقنا وتمزيقها قطعاً وحشوها في فمه، لكنه ظل متمسكاً بها.

وبما أنني لم أصارع منذ زمن طويل تملكتني الحيرة برهة من الزمن ولم أدرك ماذا يجري. رأيته يفتح فمه على اتساعه غير أنني لم أسمع زعيقه.

في الخارج استعدت رشدي عندما جلسنا، أنا وليو، على حافة أحد الدروب تحت صخرة. أشار ليو إلى سترتي الماوية الملطخة بدم صاحب النظارة الأنفية.

- تبدو كأنك بطل فيلم حربي، قال لي. أما الآن فقد انتهى أمر بالزاك بالنسبة إلينا.

دائمًا عندما أُسأل عن مدينة ينغ جنغ أجيب بجملة لصديقي ليو: هي مدينة من الصغر بحيث إذا طبخ مطعم البلدية لحم بقر بالبصل تشم رائحته المدينة كلها.

وفي الواقع لا تتكون المدينة إلا من شارع واحد، يبلغ طوله نحو مائتي متر، وفيه توجد البلدية، ومكتب بريد، ومتجر، ومكتبة، ومدرسة ثانوية، ومطعم، خلفه يوجد فندق من اثنتي عشرة غرفة. وفي مدخل المدينة يوجد مستشفى المقاطعة معلقاً فوق تلة.

في ذلك الصيف أرسلنا شيخ قريتنا عدة مرات إلى المدينة لحضور عروض أفلام. وفي رأيي أن السبب الخفي وراء ذلك السلوك السخي يعود إلى إغراء لا يقاوم يمارسه عليه منبِّهنا الصغير، مع ديكه المتبختر ذي ريش الطاووس الذي يلتقط حبة أُرز في كل ثانية؛ وهذا الزارع القديم للأفيون الذي تحول إلى شيوعي، وقع في إسار حبه. والوسيلة الوحيدة لامتلاكه، ولو لمدة قصيرة، تكمن في إرسالنا إلى ينغ جنغ. وطيلة الأيام الأربعة التي يستغرقها الذهاب والإياب، يصير سيد المنبه ومالكه.

في نهايات شهر آب/أغسطس، أي بعد شهر عن المعركة التي تسببت في تجميد علاقاتنا الدبلوماسية مع صاحب النظارة

الأنقية، عدنا من جديد إلى المدينة، لكن مع اصطحاب الخياطة الصغيرة هذه المرة.

كان الفيلم المعروض في الهواء الطلق داخل ملعب كرة السلة التابع للمدرسة الثانوية والغاص بالمتفرجين، هو نفسه ذلك الفيلم الكوري الشمالي القديم، بائعة الزهور الصغيرة ، والذي سبق لنا ، أنا وليو ، مشاهدته وقصّه على مسامع سكان القرية؛ الفيلم نفسه الذي جعل الساحرات العجائز الأربع يبكين بدموع حرًى في بيت الخياطة الصغيرة. كان شريطاً سيئاً. ولم تكن بنا حاجة إلى رؤيته مرتين للتأكد من الأمر. غير أن ذلك لم يؤد إلى إفساد مزاجنا تماماً. أولاً ، لأننا كنا فرحين بالعودة إلى المدينة. آه! يا لأجواء المدينة التي تجعل رائحة طبخة لحم البقر بالبصل تختلف عن رائحتها في قريتنا ، حتى وإن كان حجم هذه المدينة لا يتجاوز حجم منديل الجيب، وأنا أؤكد لكم ذلك. خصوصاً وأن المدينة تتمتع بالكهرباء وليس بمصابيح النفط وحدها. ولا أقصد بذلك أننا مهووسان بالمدينة لكن مهمتنا المتمثلة في حضور عرض فيلم، تنقذنا من العمل المضني في الحقول لمدة أربعة أيام نقضيها في نقل «سماد البشر والحيوان» على الظهر، أو في حرث حقول الأُرز الطينية بواسطة جواميس يمكن لأذنابها الطويلة أن تلطمك في أية لحظة.

السبب الثاني الذي عدل في مزاجنا يعود إلى رفقة خياطتنا الصغيرة. وبما أننا وصلنا بعد بداية العرض، لم نجد سوى

أمكنة تتطلب الوقوف خلف شاشة العرض حيث كان كل شيء يشاهد مقلوبًا وكل شخص أعسر. غير أنها لم تشأ تفويت هذه الفرجة النادرة. أما نحن فقد تمتعنا برؤية وجهها يتلألأ بالانعكاسات الضوئية الملونة المنبعثة من الشاشة. أحيانًا يغرق وجهها في العتمة فلا نلمح إلا عينيها مثل نقطتين فسفوريتين. إلا أن ذلك الوجه سرعان ما يضاء فجأة، مع تغير اللقطة، ويتلون ويشرق في تجلٍّ لأحلام اليقظة. ومقارنة بكل المتفرجات اللواتي تجاوز عددهن الألفين، كانت هي الأجمل من دون شك. وفي أعماقنا انبثق نوع من الغرور الذكوري إزاء نظرات الذكور الآخرين المفعمة بالغيرة، حولنا. في منتصف الفيلم، وبعد مرور نصف ساعة من العرض، أدارت رأسها وهمست في أذني كلمات قاتلة:

- يبدو كل شيء أكثر أهمية عندما تحكيه أنت.

كان الفندق الذي نزلنا فيه زهيد الثمن، إذ لا تكلف الغرفة سوى خمسين قرشًا أي ما يعادل ثمن صحن لحم عجل بالبصل، تقريباً. كان الحارس الليلي متناومًا على كرسي في باحة الفندق، وهو شيخ أصلع سبقت لنا معرفته. أشار بإصبعه إلى غرفة مضاءة قائلا لنا بصوت خفيض إن امرأة أنيقة في الأربعين استأجرتها هذه الليلة؛ وقد جاءت من عاصمة مقاطعتنا، على أن تسافر صباح الغد إلى جبل فينيق السماء.

- جاءت للبحث عن ابنها، أضاف قائلا، لأنها وجدت له عملا جيدًا في مدينتها.

- وهل يخضع ابنها إلى دورْة إعادة تأهيل ؟ سأله ليو.
- نعم، مثلكما تمامًا.

من عساه يكون ذلك السعيد المصطفى، المحرَّر الأول، من بين مائة شاب خاضع لإعادة التأهيل في جبلنا؟ سيطر علينا هذا السؤال لمدة استغرقت نصف الليل على الأقل، وظل يمزق منا الروح ويصيبنا بحمى السهاد وعذاب الغيرة. صار فراش الفندق حارقًا، يتعذر النوم عليه. ولم نتمكن من التوصل إلى معرفة شخصية ذلك المحظوظ رغم تعدادنا لأسماء كل الفتيان، باستثناء «أبناء البرجوازية» مثل صاحب النظارة الأنفية، أو «أبناء أعداء الشعب»، مثلنا، أي المنتمين إلى نسبة الحظ ثلاثة في الألف.

في الغد، وأنا في طريق العودة، التقيت تلك المرأة القادمة لإنقاذ ابنها. تم ذلك تحديدًا قبيل ارتفاع الدرب نحو الصخور وتلاشيه في الغيوم البيضاء التي تكلل الجبال العالية. كان يمتد تحت أقدامنا منحدر تغطيه قبور تيبتيّة وصينية. لقد أرادت الخياطة الصغيرة أن تُرينا الموضع الذي دُفن فيه جدها لأمها. وبما أنني لا أحب المقابر كثيرًا فقد تركتهما يتوغلان وحدهما في غابة شواهد القبور التي كان بعضها نصف موارى في التراب بينما غطت الأعشاب الكثيفة بعضها الآخر.

على إحدى حافتي الدرب، وتحت صخرة معلّقة وناتئة، أشعلتُ نارًا كالمعتاد بواسطة بعض الأغصان والأوراق الجافة، ثم أخرجت من حقيبتي حبات بطاطا حلوة ودسستها

في الرماد كي تشوى. عندئذ لاحت المرأة، جالسة على كرسي خشبي، يحمله شاب على ظهره بواسطة سيور جلدية. والأمر الغريب والمدهش هو أنها كانت، في ذلك الوضع الخطر، تبدي هدوءًا لاإنسانيًا تقريبًا، وتنسج الصوف كما لو كانت تفعل ذلك على شرفتها.

كانت نحيلة القامة، ترتدي سترة خضراء غامقة من القطيفة المضلَّعة، وسروالاً من اللون البني الفاتح، وزوجي حذاء بنعلين خفيضين من جلد مرن ولون أخضر ناصل. وعندما اقترب حاملها مني أراد التوقف للاستراحة فوضع الكرسي على صخرة مربعة الشكل. تابعت الحياكة من دون النزول عن الكرسي، ومن دون إلقاء نظرة على بطاطاتي الناضجة، أو التوجه ببضع كلمات مجاملة لحمّالها. سألتها مقلِّدًا اللهجة المحلية؛ إن كانت قد نزلت البارحة في فندق المدينة. أكدت الأمر مكتفية بهز رأسها، ثم عادت إلى حياكتها. كانت أنيقة، وغنية بلا شك، ولا يمكن لشيء أن يدهشها.

غرزت غصنا في حبة بطاطا حلوة ونفضت عنها التراب والرماد. وقررت تغيير اللهجة.

- هل تودين تذوق شواء على الطريقة الجبلية؟

- أنت تتكلم لهجة شنغدو! صرخت بي، وكان صوتها رخيما.

أوضحت لها بأن عائلتي تسكن في شنغدو التي جئتُ منها فعلاً. آنذاك أسرعت إلى النزول من كرسيها وجاءت، والكنزة الصوفية في يدها، لتجثم أمام ناري. ولا شك أنها ليست

معتادة على الجلوس في مثل هذه الأماكن.

تناولتْ حبة البطاطا التي مددتها لها فنفخت عليها مبتسمة. ترددتْ في قضمها.

ـ لِمَ أنت هنا، أمِنْ أجل إعادة التأهيل؟

ـ نعم، في جبل فينيق السماء، أجبتها وأنا أبحث عن حبة بطاطا أخرى تحت الجمر.

ـ حقًّا؟ صرختْ. ابني أيضا يخضع إلى إعادة التأهيل في ذلك الجبل. لعلّك تعرفه. يبدو أنه الوحيد بينكم الذي يضع نظارات.

أخفقتُ في التقاط حبة البطاطا الحلوة، وانغرز الغصن في الفراغ. فجأة بدأ رأسي بالطنين كما لو أنني تلقّيت صفعة.

ـ أنتِ والدة صاحب النظارة الأنفية ؟

ـ نعم.

ـ إذًا فهو أول المتحررين!

ـ آه، أنتَ على علم؟ نعم، سيتولى العمل في إدارة تحرير مجلة أدبية تصدر في مقاطعتنا.

ـ ابنك متخصص لا مثيل له في الأغاني الجبلية.

ـ أعرف ذلك. في البداية خشينا أن يضيع وقته في هذا الجبل. لكن، كلا، لقد تمكن من جمع الكثير من الأغاني، مع تعديلها وتحويرها، حتى إن كلمات تلك الأغاني الفلاحية الرائعة نالت إعجابَ رئيس التحرير.

ـ يعود الفضل إليكِ في تمكنه من إنجاز هذا العمل. لقد

وفّرْتِ له الكثير من الكتب لقراءتها.

ـ نعم، بالتأكيد.

فجأة سكتتْ، ورمقتني بنظرة حذرة.

ـ كتب؟ أبدًا. قالت لي بكل برود. شكرًا جزيلاً على البطاطا.

لقد بان عليها التأثر حقًّا. ندمتُ على ذكر الكتب، لما رأيتها تعيد حبة البطاطا الحلوة إلى الكومة المدخّنة، خفيةً، ثم تنهض، وتتأهب للذهاب.

بغتةً التفتتْ ناحيتي وطرحت عليَّ السؤال الذي كنت أخشاه أكثر:

ـ ما اسمك؟ سوف أخبر ابني بمقابلتك، لدى وصولي.

ـ اسمي؟ قلت بتردد وخجل، أنا أدعى ليو.

وما إن خرجت الكذبة من فمي حتى شعرت بتأنيب الضمير. ومازلت حتى الآن أسمع والدة صاحب النظارة الأنفية تصيح بصوتها العذب، كما لو أنها تخاطب صديقًا قديمًا:

ـ أنت ابن طبيب الأسنان الشهير! يا للمفاجأة! أصحيح أن أباك عالج أسنان رئيسنا ماو؟

ـ من قال لكِ ذلك؟

ـ ابني، في إحدى رسائله.

ـ لا أدري.

ـ ألم يحدثك أبوك عن ذلك قط؟ يا للتواضع! لا شك أنه طبيب أسنان بارع، بارع كثيرًا.

ـ إنه مسجون حاليًّا. ويفترض أنه عدو للشعب.

ـ أعرف. وحتى والد صاحب النظارة الأنفية ليس أفضل حالاً. (خفضت صوتها، وأخذت تهمس) لكن لا تهتم كثيرًا. موضة اليوم تنزع إلى الجهل، وسوف يأتي يوم يحتاج فيه المجتمع من جديد إلى أطبّاء بارعين، وسوف يحتاج الرئيس ماو مرة أخرى إلى والدك.

ـ عندما ألتقي والدي سوف أبلغه كلماتك المتعاطفة.

ـ وحتى أنتَ لا تيأس. انظرْ إليَّ كيف لا أنقطع عن درز هذه الكنزة الزرقاء، هذا في الظاهر فقط: أما في الواقع فأنا أنظم قصائد في رأسي، مع الحياكة.

ـ هذا مدهش! قلت لها، وأي نوع من الشِّعر؟

ـ إنه سرّ مهنيّ، يا بنيْ.

وبطرف إبرة الحياكة شكّت حبة بطاطا حلوة، وقشرتها، ثم حشتها، ساخنة، في فمها.

ـ هل تعلم بأن أبني يحبك كثيرًا؟ لقد حدثني عنك مطوَّلاً في رسائله.

ـ حقًّا؟

ـ نعم، لكنه يكره صديقك المقيم معك في القرية نفسها.

كشْف حقيقي. ارتحت معه لانتحال هوية ليو.

ـ ولمَ يكرهه؟ سألتها محاولاً المحافظة على نبرة هادئة.

ـ يبدو أنه شخص مجنون. لأنه يتهم ابني بإخفاء حقيبة. وكلما جاء لزيارته شرع يبحث عنها في كل مكان.

ـ حقيبة كتب؟

ـ لا أعلم شيئًا، قالت، وقد عادت إلى حذرها. ذات يوم، بعد أن ملَّ من تحمّله، لكمه وغلبه. ويبدو أن دمه سال في كل مكان.

كذّبتُ ذلك. وكدت أقول لها إنه كان من الأفضل لابنها أن يتخصص في السينما بدلاً من تزوير أغاني سكّان الجبال؛ ففي مجال السينما يمكنه تمضية أوقاته في اختلاق مثل تلك المشاهد الحمقاء.

ـ في البداية، لم أكن أعرف أن ابني كان قويًّا وقادرًا على العراك، تابعت القول. لقد راسلته لألومه ولأنصحه بألا يضع نفسه مجدّدًا في مثل ذلك الموقف الشائك.

ـ سوف يشعر صديقي بالإحباط عندما يعلم بأن ابنك سيغادرنا نهائيًّا.

ـ لماذا؟ أما زال يرغب في الانتقام؟

ـ كلا، لا أعتقد. لكنه سوف يفقد الأمل في الحصول على الحقيبة السرية.

ـ طبعًا! يا لها من خيبة بالنسبة لذلك الفتى!

ونظرًا لنفاد صبر حمّالها فقد ودّعتني بعد أن تمنّت لي حظًّا سعيدًا. صعدتْ إلى كرسيّها، تناولت الكنزة، وتوارت.

بعيدًا عن الدرب الرئيسي، كان القبر العائد إلى جد صديقتنا، الخياطة الصغيرة، محشورًا في زاوية متوجهة إلى الجنوب، ما بين قبور الفقراء، ذات الأشكال المكوَّرة، والتي لم يتبقَّ من بعضها إلا حدبات ترابية بأحجام متفاوتة. فيما كان

بعضها الآخر في وضع أفضل حالاً نسبيًّا، مع شاهداتها البارزة ما بين الأعشاب نصف الذابلة. أما القبر الذي انكبت الخياطة الصغيرة على تكريمه فكان في منتهى التواضع، بل كان محاذيًا للبؤس: مجرد حجر رمادي داكن، مجزّع بالأزرق، وقد عانى من التآكل بفعل عقود من العوامل المناخية، ولم يكن يميزه سوى اسم وتاريخيْن يلخصان حياة لا قيمة لها. وضعتْ عليه، مع ليو، باقة الأزهار التي جمعاها من الأنحاء: زهرات «سيرسي» ذات أوراق خضراء لمّاعة على شكل قلب، بخور مريم منحنية برشاقة، زهرات بلسمين يُطلق عليها اسم «جنّيات الفينيق»؛ وكذلك بعض زهور الأوركيديا البرية التي تعتبر نادرة بتويجاتها البيضاء اللبنية الناصعة المحتضنة لقلب أصفر ناعم.

- لَمَ تبدو على هذه الهيئة؟ خاطبتني الخياطة الصغيرة.

- أنا في حِداد على بالزاك، أخبرتهما.

وأوجزت لهما لقائي بالشاعرة المتنكرة في هيئة حائكة، أي والدة صاحب النظارة الأنفية. لم تربكهما سرقة أغاني الطحان الشيخ، ولا توديع بالزاك، ولا الرحيل القريب لصاحب النظارة الأنفية، كما كان شأني، بل العكس هو ما حدث. غير أن دور ابن طبيب الأسنان الذي ارتجلتُ جعلهما ينفجران بضحكة دوّت أصداؤها في المقبرة الساكنة.

ولمرة أخرى فتنتني رؤية الخياطة الصغيرة وهي تضحك. كان جمالها مختلفًا عما كان عليه خلال العرض السينمائي في الهواء الطلق. تضحك فتزداد ظُرْفًا، حتى إنني، ومن دون

مبالغة، أجد نفسي راغبًا في الزواج منها فورًا، رغم أنها صديقة ليو. ففي ضحكتها أشم أريج الأوركيديا البرية، أقوى من روائح الزهور الأخرى الموضوعة على القبر؛ كانت أنفاسها عبقة بالمسك وحارقة.

مكثنا، أنا وليو، واقفيْن، بينما ركعتْ أمام قبر جدها. وسجدت عدة مرات، وخاطبته بكلمات عزاء، في نوع من المناجاة المهموسة بهدوء.

فجأة، التفتتْ نحونا:

ـ ماذا لو ذهبنا لسرقة كتب صاحب النظارة الأنفية ؟

بواسطة الخياطة الصغيرة، تتبّعنا، ساعةً بساعة تقريبًا، كل ما جرى في قرية صاحب النظارة الأنفية، طيلة الأيام التي سبقت رحيله الذي كان محدّدًا يوم 4 أيلول/سبتمبر. فبفضل مهنتها كخياطة، كان يكفيها لمعرفة المستجدات، أن تغربل ثرثرة زبائنها، من الرجال والنساء على حدّ سواء، أو من القادة والأطفال، القادمين من كل القرى المجاورة. وهكذا لا يفوتها شيء.

فمن أجل الاحتفاء الباذخ بانتهاء إعادة تأهيله، أعدّ صاحب النظارة الأنفية وأمه الشاعرة حفلاً خاصا بالمناسبة، ليلة سفره. وسرَتْ شائعة مفادها أن الأم اشترت ذمة زعيم القرية الذي وافق على نحر ثور من أجل إعداد وليمة في الهواء الطلق لكل القرويين.

وظل السؤال يتعلق بأي ثور سيتم الإجهاز عليه، وكيف سيقتل، لأن القانون يحظر ذبح الثيران المستخدمة في حراثة الحقول.

ورغم أننا كنا الصديقين الوحيدين للمحتفى به، فإن اسمينا لم يرِدَا في قائمة المدعوين. ولم نأسف لذلك، لأننا قررنا

تطبيق خطة السرقة أثناء الوليمة، كأفضل توقيت لسرقة الحقيبة السرية لصاحب النظارة الأنفية.

وجد ليو لدى الخياطة الصغيرة مسامير، طويلة وصدئة، في قعر أحد أدراج الصّوان (الكومودين) الذي شكّل في الماضي مَهر أمها. صنعنا مفتاحًا عامًّا يمكن استخدامه لفتح كل الأبواب، على طريقة اللصوص الحقيقيين. كم كانت توقعاتنا ممتعة! صقلتُ أطول مسمار على حجر، حتى صار حاميًا وحارقًا بين أصابعي. ثم مسحته على سروالي المتسخ بالطين وصقلته من جديد كي يستعيد لمعانه القوي حتى خيّل إليّ، عندما قرّبته من وجهي، أنني رأيت فيه انعكاس عينيّ وسماء نهاية الصيف. تكفّل ليو بالمرحلة الأدق: ثبّت المسمار على الحجر بإحدى يديه، ورفع المطرقة بيده الأخرى، فرسمتْ هذه الأخيرة قوسًا جميلاً في الهواء، وانقضّتْ على سن المسمار، فرقّقَتْه، وارتدّتْ قليلاً، ثم ارتفعتْ من جديد، وانقضّتْ عليه...

قبل عملية السرقة بيوم أو يومين، حلمتُ بأن ليو قد عهد إليّ بالمفتاح العام. كان يوم ضباب؛ دنوت من بيت صاحب النظارة الأنفية سائرًا على أطراف أصابعي تقريبًا. كان ليو يراقب الوضع تحت شجرة، فيما تتعالى أصوات القرويين وأناشيدهم الثورية من قطعة الأرض الفضاء التي أعدوا فيها وليمتهم وسط القرية. يتكون باب صاحب النظارة الأنفية من مصراعين خشبيّيْن، يلف كلاهما في ثقبين حُفر أحدهما في العتبة. وتوجد

سلسلة مزودة بقفل من نحاس تربط بين المصراعين. لكن القفل البارد، والرطب بفعل الضباب، صمد طويلا أمام محاولات مفتاحي العمومي. أدرته في كل الاتجاهات، وضغطت عليه حتى كاد يتكسر داخل القفل. آنذاك حاولت رفع أحد المصراعين بكلّ ما أوتيتُ من قوة، لكي أتوصل إلى إخراج وتد المصراع من ثقب العتبة. غير أن هذه المحاولة باءت أيضًا بالفشل. جربت المفتاح مرة أخرى، وفجأة، تكْ، انفتح القفل. فتحت الباب، لكنني ما كدت أدخل البيت حتى تجمدت في مكاني. يا للهول: كانت والدة صاحب النظارة الأنفية هناك، أمامي بلحمها ودمها، جالسة على كرسي، وراء طاولة، تحيك الصوف بهدوء. ابتسمت لي دون أن تنبس بكلمة. شعرت بخجل جعل أذنيَّ لاهبتين مثل فتى خجول في موعده الغرامي الأول. لم تصحْ طلبًا للنجدة، ولا للقبض على السارق. غمغمتُ بجملة مرتبكة لأسألها عما إذا كان ابنها هنا. لم تجبني، لكنها تابعت ابتساماتها؛ وظلت تنسج الصوف من دون توقف، بيديها ذات الأصابع الطويلة الدقيقة، والمغطاة ببقع داكنة وشامات كثيرة. بهرت عينيّ حركات الإبرتين اللتين كانتا تدوران وتدوران، تظهران وتنغرزان، تختفيان وتظهران، ثم تنغرزان من جديد. استدرتْ، غادرت الباب وأغلقته خلفي بهدوء، وأعدت القفل. ورغم أن أي صوت لم ينطلق خلفي فقد هربت بسرعة جنونية، وركضت كما يركضْ العدّاء. في تلك اللحظة تحديدًا استيقظت من نومي منتفضًا.

كان ليو يشعر بالخوف مثلي، رغم أنه كرر لي القول باستمرار إن اللصوص المبتدئين محظوظون عادة. وقد فكر كثيرًا في حلمي، وراجع خططه الهجومية.

يوم 3 أيلول/سبتمبر، حوالي منتصف النهار، أي عشية رحيل صاحب النظارة ووالدته، ارتفع خوار ممزق من جاموس محتضر، في أسفل الجرف، ودوّى في البعيد. وكان يمكن سماعه حتى من بيت الخياطة الصغيرة. وبعد بضع دقائق جاء أطفال ليخبرونا بأن شيخ القرية التي ينزل فيها صاحب النظارة الأنفية، قد دفع بجاموس حيّ إلى الجرف عمدًا.

تم تمويه عملية القتل باعتبارها حادثًا؛ وحسب القاتل فإن الجاموس قد زلت به قائمته في منعطف خطر، فانطلق في الفراغ، يسبقه قرناه؛ مع ضجة مكتومة، مثل جلمود صخر هوى من علٍ، وارتطم في سقوطه بصخرة ناتئة جعلته يرتد، وينقذف مجددًا، ليسقط مهشَّمًا فوق صخرة أخرى على بعد حوالي عشرة أمتار.

لم يلفظ الجاموس أنفاسه مباشرة. ولن أنسى أبدًا التأثير العميق الذي تركه فيَّ خواره الطويل النائح. عندما يُسمع خوار الجاموس من باحات المنازل، يأتي حادًا، كريها، عادة. أما في تلك الظهيرة الساخنة والهادئة، وسط الامتداد الجبلي الذي لا يحدّ، فكان صدى الخوار يرتد على جنبات الصخور، ويقبل مهيبًا، مدوّيًا، شبيهًا بزمجرة أسد حبيس في قفص.

حوالي الساعة الثالثة، ذهبنا، أنا وليو، إلى مكان الحادثة.

كانت صرخات الجاموس قد خمدت. فتحنا طريقنا وسط الحشد المتجمهر على حافة الجرف. قيل لنا إن ترخيص رئيس البلدية بقتل الجاموس قد وصل. فاستمد صاحب النظارة الأنفية، وبعض القرويين المسبوقين برئيسهم، قوة جديدة من تلك التغطية القانونية، ونزلوا إلى أسفل الجرف من أجل غرز سكين في عنق الحيوان.

لدى وصولنا كانت المقتلة الحقيقية قد تمت. ألقينا بنظرة إلى أسفل الجرف، موقع الإعدام، ورأينا صاحب النظارة مقرفصًا أمام كتلة الجاموس الهامدة، جامعًا الدم النازف من جرح عنقه، في قبعة واسعة مصنوعة من أوراق الخيزران.

وفي حين صعد ستة قرويين من الجرف الوعر، وهم يغنون حاملين الجاموس على ظهورهم، ظل صاحب النظارة الأنفية ورئيسه جالسيْن، في أسفل الجرف، جنبًا إلى جنب، قرب قبعة الخيزران المملوءة دمًا.

- ماذا يفعلان هناك؟ سألتُ أحد المتفرجين.

- ينتظران تخثر الدم، أجاب. إنه دواء ناجع ضد الجبن. إذا أردت أن تصير شجاعًا عليك ابتلاعه فاترًا مزبدًا.

دعاني ليو الذي يتمتع بروح تلقائية إلى النزول معه إلى أسفل الجرف، لرؤية المشهد عن قرب. كان صاحب النظارة الأنفية يرفع عينيه، بين الفينة والأخرى، باتجاه الجمهور. ولا أدري إن كان قد لاحظ وجودنا. وفي النهاية أخرج الشيخ سكّينه وقد بدت لي شفرته طويلة وحادة. داعب حدّها بأطراف

أصابعه ثم قطع كتلة الدم المتخثر إلى قسمين، أحدهما لصاحب النظارة الأنفية، والآخر له، شخصيًا.

لم نكن نعلم أين توجد والدة صاحب النظارة في تلك اللحظة. ماذا كان عساها تفكر لو كانت حاضرة قربنا وتشاهد ابنها يتناول الدم في كف يده ويغطس وجهه فيه مثل خنزير ينبش كومة زبل بفنطيسته؟ كان من الشحّ بحيث لجأ بعد ذلك إلى مص أصابعه واحدًا واحدًا إلى آخر قطرة. وحتى في طريق العودة لاحظت أن فمه ظل يمضغ متذوقًا ذلك البلسم.

- من حسن الحظ أن الخياطة الصغيرة لم تأت معنا، قال لي ليو.

خيم الظلام. وفي ساحة فارغة، تتوسط قرية صاحب النظارة الأنفية، ارتفعت أعمدة دخانية من موقد وضعت عليه طنجرة عملاقة، لا شك أنها تنتمي إلى تراث القرية.

كان المشهد، مرئيًا من بعيد، يبدو رعويًا دافئًا. وكان بعد المسافة يمنعنا من رؤية لحم الجاموس المقطع وهو يغلي في الطنجرة الكبيرة، غير أن رائحته المتبَّلة بالفلفل تجعل اللعاب يسيل. أما القرويون، وخاصة النساء والأطفال منهم، فقد تحلقوا حول موقد النار. وجلب بعضهم حبات بطاطا ألقوا بها في القدر، فيما تولى غيرهم تغذية النار بالحطب والأغصان. وشيئا فشيئًا تكدس البيض، وسنابل الذرة، والفواكه، حول الطنجرة. لاحت والدة صاحب النظارة الأنفية نجمة السهرة بلا منازع. فقد برز جمالها بفضل سترتها الخضراء الغامقة من المخمل المضلع التي أظهرت سحنتها المشرقة، في تناقض

واضح مع السحنات السمراء لدى القرويين. كانت ثمة زهرة، لعلها قرنفلة، مغروزة على صدرها. استمرّتْ تُظهر كنزة الصوف، وتطلع عليها نساء القرية فتثير صيحات الإعجاب رغم عدم اكتمال حياكتها.

ظلت نسمات الليل تنشر الرائحة الشهية التي ازداد عبقها. ولا شك أن الجاموس المغتال هرمٌ جدًا لأن طبخ لحمه القاسي استغرق وقتا أطول من طبخ نسر عجوز. إذ أنه لم يعرّض صبر اللصوص لدينا للخطر، فقط، بل صبْر صاحب النظارة الأنفية أيضًا، والذي تحول مؤخرًا إلى مصاص دماء: رأيناه عدة مرات، مهتاجًا مثل برغوث، يرفع غطاء الطنجرة، يغطس فيها قضيبيْه، يخرج منها قطعة لحم كبيرة مدخنة، يتشممها، يقربها من نظارته الأنفية كي يتفحصها، ثم يعيدها إلى المرق مع الشعور بالخيبة.

سمعت ليو يهمس في أذني وأنا لابدٌ في العتمة ما بين صخرتين تواجهان ساحة الحفل:

ـ عزيزي، هوذا أهم ما في عشاء الوداع.

اقتفيت ببصري اتجاه إصبعه، فرأيت خمس عجائز يقبلن مرتديات فساتين سوداء طويلة، تفرقع بفعل ريح الخريف. ورغم المسافة الطويلة، ميزت وجوههن المتشابهة كما لو كن أخوات، وقد بدت ملامحهن كأنها نُحتت في الخشب. فورًا عرفت من بينهن الساحرات الأربع اللواتي كنّ في زيارة الخياطة الصغيرة.

بدا ظهورهن كأنه بإعداد مسبق من والدة صاحب النظارة الأنفية. فبعد حوار قصير، أخرجت حافظة نقودها، وقدمت ورقة نقدية لكل واحدة منهن، أمام نظرات القرويين المفعمة ببريق الطمع.

في هذه المرة لم تكن واحدة فقط تحمل قوسًا وسهامًا، بل تسلحت بذلك الساحرات الخمس. ولعلّ مرافقة أحد المحظوظين المصطفين إلى البعيد تتطلب معدّات حربية أكثر مما يتطلبه السهر على روح مريض مصاب بالملاريا. أو ربما كان المبلغ الذي دفعته الخياطة الصغيرة من أجل الطقوس أقل بكثير من المبلغ الذي قدمته الشاعرة المعروفة سابقًا في هذه المقاطعة ذات المائة مليون نسمة.

وفي انتظار أن ينضج لحم الجاموس نضجًا كافيًا للذوبان في أفواههنّ الدرداء، انكبت إحدى العجائز على تفحص خطوط اليد اليسرى لصاحب النظارة الأنفية، على ضوء النار المتقدة.

استحال علينا سماع الكلمات التي تلفظت بها الساحرة رغم أن موقعنا لم يكن بعيدًا جدًا. رأيناها تطبق جفنيها وتحرك شفتيها الرقيقتين الذاويتين على فمها الأدرد؛ ثم تنطق بجمل شدّت انتباه صاحب النظارة الأنفية ووالدته. وعندما توقفت عن الكلام، نظر إليها الجميع، في صمت مزعج، ثم تعالت ضجة بين القرويين.

- تبدو كأنها أعلنت عن كارثة، قال لي ليو.

ـ لعلها رأت بأن كنزهُ مهدّد بالسرقة.

ـ كلا، لقد رأت، بالأحرى، شياطين تريد عرقلة مساعيه.

ولا شك أن ذلك لم يبتعد كثيرًا عن الصواب، إذ قامت الساحرات الخمس، في اللحظة ذاتها، ورفعن أقواسهنّ في الهواء، بحركات واسعة من أذرعهن، وشبكّنهنّ مطلقات صيحات حادة.

بعد ذلك شرعن يرقصن رقصة تعزيم حول النار. في البداية، وربما لتقدمهنّ في السن، اكتفين بالدوران البطيء، خفيضات الرؤوس. ومن وقت لآخر يرفعن رؤوسهن ويرسلن، مثل لصّات، نظرات خائفة في كل الاتجاهات، ثم يعدن إلى خفضها من جديد. وخرجت من أفواههن لازمات مرتلة على طريقة الصلوات البوذية، أي في غمغمات غير مفهومة خرجت من أفواههن ورددها الحضور خلفهن. رمت ساحرتان بقوسيهما على الأرض وشرعتا تهتزان لحظة قصيرة. فخمّنتُ بأنهما كانتا تقلدان أرواحًا شريرة، بتلك الاختلاجات. كأنما جاء شبحان وسكنا جسديهما، فحوّلاهما إلى وحشين مريعين مختلجين. أما الساحرات الثلاث الأخريات فقد كن يؤدين، في اتجاههما، حركات تشبه حركات المقاتلين في إطلاق السهام. كنَّ يشبهن ثلاثة غربان. كانت فساتينهن الطويلة السوداء، تنبسط في الدخان، على إيقاع رقصهنّ، ثم تسقط وتتجرجر على الأرض محرِّكةً سحبًا من الغبار.

صارت رقصة «الشبحين» تتثاقل أكثر، كما لو كانت السهام

اللامرئية التي أصابت وجهيهما، مسمومة. ثم خفت حركة خطواتهما. انسحبنا، أنا وليو، قبل سقوطهما بقليل، وكان سقوطًا مشهديًا مذهلاً.

تواصلت الوليمة إلى ما بعد مغادرتنا. إذ سكتت الجوقة المرافقة لرقصة الساحرات عندما اجتزنا القرية.

ما من قروي واحد، مهما كان عمره، تخلف عن الحضور لتذوق لحم الجاموس المسلوق مع الفلفل المفروم وأكباش القرنفل. كانت القرية مقفرة، كما توقع ليو تمامًا (فذلك الحكواتي الرائع لم يكن مفتقرًا للذكاء الاستراتيجي). فجأة عاد إلى ذهني ذلك الحلم الذي شاهدته.

ـ ألا تريد مني أن أتولى الحراسة؟ سألته.

ـ كلا، أجاب، نحن لا نتحرك في حلمك.

* * *

بللّ المسمار القديم، الصدئ، الذي تحول إلى مفتاح عمومي، بين شفتيه. ولج المفتاح ثقب القفل بصمت، لفّ نحو اليسار، ثم نحو اليمين، عاد إلى اليسار، تراجع مليمترًا واحدًا... دوّى صوت معدني خاطف في مسمعينا، وانفتح القفل.

تسللنا داخل بيت صاحب النظارة الأنفية، وأغلقنا المصراعين خلفنا مباشرة. لم تكن الرؤية جيدة في العتمة؛ حتى إننا لم نكن لنتوصل إلى تمييز بعضنا. غير أن الكوخ كان يعبق برائحة انتقال سكنيّ، ملأتنا غيرةً.

ألقيت بنظرة إلى الخارج عبر شق بين المصراعين: ما من أثر لشبح بشري حتى الآن. ولأسباب أمنية، أي من أجل تفادي انتباه أحد المارة إلى غياب القفل عن الباب، دفعنا المصراعين نحو الخارج حتى باعدنا بينهما إلى أقصى درجة ممكنة، ليتمكن ليو، الذي احتاط لذلك، من إخراج يده، وإعادة السلسلة إلى موضعها، ثم إغلاقها بالقفل.

غير أننا نسينا التأكد من النافذة التي خططنا للخروج منها بعد إتمام المهمة. والسبب أننا ذهلنا تمامًا عندما أضاء ليو مصباحه اليدوي: لاحت الحقيبة الجلدية، غنيمتنا الهائلة، في العتمة، فوق بقية الأغراض، كأنها تنتظرنا، وقد نفد صبرها لكي تفتح.

- نجحنا! قلت مخاطبًا ليو.

خلال إعداد الخطة، أي قبل بضعة أيام، توصلنا إلى أن نجاح زيارتنا اللاشرعية، يتوقف على أمر واحد: معرفة الموضع الذي يخفي فيه صاحب النظارة الأنفية حقيبته. كيف عسانا نجدها؟ استعرض ليو كل الدلائل وكل الحلول الممكنة. وتوصل، شكرًا للرب، إلى وضع خطة لا بد من تطبيقها خلال وليمة الوداع. كانت فرصة فريدة من نوعها حقًا: فالشاعرة رغم ذكائها، وبالنظر إلى عمرها، لم تشأ التخلي عن تنظيم الأمور مسبقًا، لكي لا تضطر إلى البحث عن تلك الحقيبة في آخر لحظة من صبيحة الرحيل.

اقتربنا من الحقيبة. كانت مربوطة بحبل غليظ مضفور من

القش. حررناها من قيدها وفتحناها في صمت، فأضيئت، في داخلها، كومة كتب بضوء مصباحنا اليدوي. واستقبلنا الكتّاب الغربيون العظماء بأحضان مفتوحة: في مقدمتهم صديقنا القديم بالزاك، في خمس روايات أو ستّ، يليه فكتور هيغو، ستاندال، دوما، فلوبير، بودلير، رومان رولان، روسو، تولستوي، غوغول، دوستويفسكي، وبعض الإنجليز: ديكنز، كبلنغ، إميلي برونتي...

يا للروعة! شعرت بالإغماء في ضباب النشوة. أخرجت الروايات، واحدة واحدة، من الحقيبة، فتحتها، تأملت صور مؤلّفيها، ثم قدمتها إلى ليو. ومن ملامستها بأناملي، خُيِّل إليَّ أن يديَّ اللتين أصيبتا بالشحوب، كانتا في اتصال بحيوات بشرية.

- هذا يذكّرنا بمشهد في أحد الأفلام، قال ليو، وذلك عندما يفتح اللصوص حقيبة ملأى بالأوراق النقدية...

- ألا تشعر بدموع الفرح تنبعث منك؟

- كلا، إنما أشعر بالحقد.

- أنا أيضًا. أكره كل الذين منعوا عنّا هذه الكتب.

أفزعتني آخر جملة نطقت بها، كما لو أن سمَّاعةً يمكن أن تكون مخفية في موضع ما، من الغرفة. فمثل هذه الجملة يمكن أن تكلف من يتهور بنطقها عدة سنوات في السجن.

- هيا بنا ! قال ليو وهو يغلق الحقيبة.

- انتظر!

- ما بك؟
- أنا محتار... لنعد إلى التفكير في الأم: من المؤكد أن صاحب النظارة الأنفية لن يتهم غيرنا بسرقة الحقيبة. وسوف نعاني الأمرّين إذا وشى بنا. لا تنسَ أن أهلنا ليسوا مثل الآخرين.
- سبق أن قلت لك بأن أمه لن تسمح له بذلك. وإذا فعلتْ فإن الجميع سوف يكتشفون بأن ابنها كان يخفي كتبًا ممنوعة! وهكذا لن يتمكن من مغادرة فينيق السماء أبدًا.

بعد صمت دام بضع ثوانٍ، فتحت الحقيبة:
- لو أننا اكتفينا ببضعة كتب فقط، فلن ينتبه إلى ذلك.
- لكنني أريد قراءتها كلها، أكد ليو بكلّ تصميم.

أغلق الحقيبة ووضع يده فوقها مثل مسيحي يؤدي القسَم، ثم قال لي:
- بهذه الكتب سوف أغير الخياطة الصغيرة. ولن تظل مجرد قروية من سكان الجبال.

توجهنا نحو الغرفة بصمت. سرت في المقدمة، حاملاً المصباح اليدوي، وتبعني ليو حاملا الحقيبة التي بدت في منتهى الثقل؛ إذْ سمعتها، خلال تقدمنا، ترتطم برجلي ليو، وبسرير صاحب النظارة الأنفية، وسرير أمه الذي زاد في ضيق الغرفة رغم صغر حجمه وتجهيزه المرتجل من بعض الألواح الخشبية.

فوجئنا بأن الشباك مثبت بالمسامير. حاولنا دفعه فلم يخرج

منه إلا صرير خفيف أقرب إلى الأنين، من دون أن يتزعزع سنتمترًا واحدًا.

لم يظهر لنا الوضع كارثيًا. عدنا بهدوء إلى غرفة الطعام، مستعديْن لإعادة المناورة السابقة: المباعدة بين مصراعيْ الباب، إخراج يد من الشق، وإدخال المفتاح العام في القفل النحاسي.

فجأة همس ليو:

- سكوت!

تملكني الهلع فأطفأت المصباح اليدوي فورًا. تجمدنا من الذهول لسماعنا صدى خطوات سريعة في الخارج. تطلب الأمر منا خسران دقيقة ثمينة كي ندرك أن تلك الخطوات تتجه نحونا.

في اللحظة ذاتها سمعنا، من دون وضوح، صوت شخصين؛ رجل وامرأة، من دون التأكد مما إذا كانا صاحب النظارة وأمه. تراجعنا نحو المطبخ مستعديْن لما هو أسوأ. وفي طريقي إلى المطبخ أضأت المصباح اليدوي لثانية واحدة، فيما كان ليو يعيد الحقيبة إلى موضعها فوق الأغراض الأخرى.

وحصل ما كنا نخشاه فعلاً؛ لقد فاجأتنا الأم وابنها في أوج عملية السرقة. كانا يتحدثان قرب الباب.

- أعرف، دم الجاموس هو الذي لم يلائمني. أشعر بغازات نتنة تصعد من معدتي إلى حلقي.

- من حسن الحظ أنني جلبت دواء للهضم، أجابت الأم.

أصابنا الارتباك فلم نتوصل إلى العثور على موضع نختبئ فيه داخل المطبخ. كانت العتمة تمنعنا من الرؤية تمامًا. اصطدمتُ بليو وهو يحاول رفع غطاء جرة أرز كبيرة. لقد فقد عقله.

- إنها صغيرة جدًا، قال هامسًا.

دوّت في آذاننا ضجة السلسلة ثم انفتح الباب لحظة اندفاعنا نحو الغرفة للاختباء تحت السريرين.

دخلا إلى غرفة الطعام وأضاءا المصباح.

سار كل شئ سيرًا عكسيًا. فبدل اختبائي تحت سرير صاحب النظارة الأنفية لأنني أطول من ليو وأضخم منه، وجدت نفسي محشورًا تحت سرير أمه وهو أضيق بكثير، زدْ على ذلك وجود السطل الصحي تحته، كما تدل على ذلك رائحة مزعجة يمكن تمييزها بسهولة. كان ثمة تجمع من الذباب يحوم حولي. حاولت التمدد وفق ما يسمح به ضيق المكان غير أن رأسي كاد يقلب السطل النتن؛ سمعت بقبقة خفيفة ازدادت معها حدة الرائحة النفاذة والمقرفة. وبردة فعل غريزية، بدرتْ من جسمي حركة عنيفة نوعًا ما، انبعثت معها ضجة قابلة للسماع، ضجة شاذة وخائنة.

- ألم تسمعي شيئًا يا أمي؟ سأل صوت صاحب النظارة الأنفية.

- كلا.

أعقب ذلك صمت شامل، استغرق أبدية كاملة تقريبًا.

تخيلتهما يصيخان السمع في مشهد مسرحي ثابت، من أجل اقتناص أدنى ضجة.

- لا أسمع إلا قرقرة بطنك، قالت الأم.

- إنه دم الجاموس الذي أجد صعوبة في هضمه. أشعر بالانحطاط. لا أدري إن كنت قادرا على العودة إلى الحفل.

- هذا عيب، لا بد من الذهاب! أكّدت الأم بصوت آمر، خذْ، لقد وجدت أقراص الدواء. تناولْ منها قرصين وسوف تهدأ آلام معدتك.

سمعت الابن المطيع يتوجه نحو المطبخ للتزود بالماء بالتأكيد. وابتعد ضوء المصباح معه. ورغم أنني لم أكن ألمح ليو في الظلام، فقد قدّرت بأنه يشعر بالارتياح مثلي لعدم الاختباء في المطبخ.

ابتلع صاحب النظارة الأنفية قرص الدواء وعاد إلى قاعة الطعام. سألته أمه:

- حقيبة الكتب ليست محزومة؟

- بلى، لقد حزمتها بنفسي هذا المساء.

- لكنْ، انظر! ألا ترى الحبل مرميًّا على الأرض؟

يا للهول كان علينا ألا نفتحها. سرتْ قشعريرة في ظهري المقوس تحت السرير. حقدت على نفسي. بحثت عن وجه شريكي في العتمة، بلا طائل.

لعلّ صوت صاحب النظارة الأنفية الهادئ يدل على انفعال عنيف:

ـ أخرجتُ الحقيبة من الحفرة التي أخبئها فيها وراء المنزل، أثناء الليل. ولدى دخولي نظفتها من التراب والأوساخ الأخرى العالقة بها، وتأكدت من أن الكتب لم تتعفن. وفي النهاية، قبل الذهاب للأكل مع القرويين، حزمتها بهذا الحبل الغليظ المصنوع من القش.

ـ ماذا حدث؟ هل تسلل أحدهم إلى البيت أثناء الحفلة؟

هرع صاحب النظارة الأنفية إلى الغرفة والمصباح في يده. رأيت عينيْ ليو، تحت السرير المقابل، تلمعان تحت الإضاءة المقتربة. ومن حسن الحظ أن قدميْ صاحب النظارة توقفتا عند العتبة. قال وهو يلتفت مخاطباً أمه:

ـ هذا مستحيل. النافذة مازالت مثبتة بالمسامير، والباب موصد بالقفل.

ـ أعتقد أنه يتوجب عليك، مع ذلك، إلقاء نظرة على الحقيبة والتأكد من عدم وجود نقص في عدد الكتب. صديقاك القديمان يخيفانني. لست أدري كم مرة كتبت لك قائلةً بأن عليك عدم مخالطة هذين الشخصين، لأنهما أشد دهاء منك، لكنك لم تنصت إلى كلامي.

سمعت الحقيبة تفتح وصوت صاحب النظارة الأنفية يجيب:

ـ صادقتهما اعتقادا مني أنك وأبي تعانيان من مشاكل في الأسنان، وربما احتجتما، ذات يوم، إلى والد ليو.

ـ حقاً؟

- نعم، يا أمي.
- أنت لطيف يا بنيْ (صار صوت الأم عاطفيا). حتى في مثل هذه الظروف القاسية مازلت تفكر في أسناننا.
- لقد تأكدت يا أمي: لم يختفِ أي كتاب.
- هذا أحسن. لقد كان استنفارنا في غير محله. هيا بنا نذهب.
- انتظري، ناوليني ذيل الجاموس، سأضعه في الحقيبة.

بعد دقائق، سمعت صاحب النظارة الأنفية يصيح وهو يحزم الحقيبة:

- خراء!
- أنت تعرف، يا بني، بأني لا أحب الكلمات البذيئة.
- أُصبت بإسهال! أعلن صاحب النظارة الأنفية بنبرة متألمة.
- اذهب إلى السطل، في الغرفة!

تنفسنا الصعداء لدى سماعنا صاحب النظارة الأنفية يركض خارج البيت.

- إلى أين أنت ذاهب؟ صاحت الأم.
- إلى حقل من حقول الذرة.
- هل تزودت بقليل من الورق؟
- كلا، أجاب صوت الابن وهو يبتعد.
- سألتحق بك محمَّلةً بما يجب! صاحت الأم.

كم كنا محظوظيْن لأن هذا الشاعر الواعد فكر في إفراغ بطنه في الهواء الطلق! وفي إمكاني تخيل المشهد المرعب، والأكثر إذلالا، الذي كان في استطاعته إخضاعنا له. لو أنه

هرع إلى الغرفة وسحب السطل الصحي بسرعة من تحت السرير وجلس عليه، وأفرغ دم الجاموس أمامنا، في جلبة لا تقل دوياً مصماً عن دوي شلال عنيف.

ما إن خرجت الأم مسرعة حتى سمعت ليو يهمس لي في الظلام:

ـ أسرع! هيا بنا ننسحب!

لدى مرورنا بغرفة الطعام تناول ليو حقيبة الكتب. وبعد ساعة من الركض الجنوني عبر الدرب، قررنا الاستراحة، ففتح ليو الحقيبة. كان ذيل الجاموس، الأسود، ذو الطرف المشعّر، والملطخ ببقعة داكنة من الدم، يتصدر طبقات الكتب.

كان ذا طول استثنائي. ولا شك أنه يعود إلى الجاموس الذي هشم نظارة صاحبنا.

الفصل الثالث

بعد مرور أعوام كثيرة، ظلت إحدى الصور العائدة إلى مرحلة إعادة تأهيلنا منحوتة في ذاكرتي، مع دقة استثنائية في التفاصيل: تحت النظرات الهادئة لغراب ذي منقار أحمر، كان ليو يحمل سلة على ظهره، ويتقدم على أربع، في ممر لا يتجاوز عرضه ثلاثين سنتمتراً بين هاويتين عميقتين. وفي سلة الخيزران البسيطة، الوسخة، والمتينة في آن، يوجد كتاب مخفي لبالزاك: «الأب غوريو»، وعنوانه باللغة الصينية «الشيخ غو». كان ليو ذاهبا لقراءته على مسمع الخياطة الصغيرة التي كانت لا تزال فتاة جبلية، جميلة لكنها أمية.

عشنا، طيلة شهر أيلول/سبتمبر، وبعد عملية السطو الناجحة، مفتونَيْن، مسكونَين، مكتسَحَيْن، بلغز العالم الخارجي، ولا سيما لغز المرأة، والحب، والجنس، الذي بدأ الكتّاب الغربيون يكشفونه لنا يومًا بعد يوم، صفحة إثر صفحة، كتابًا تلو كتاب. ذلك أن صاحب النظارة الأنفية رحل من دون أن يشِيَ بنا، وأكثر من ذلك، فقد ذهب شيخ قريتنا إلى مدينة ينغ جنغ لحضور مؤتمر الشيوعيين في المقاطعة. انتهزنا فرصة ذلك الشغور في السلطة السياسية، والفوضى الضمنية التي

عمت القرية مؤقتًا، ورفضنا الذهاب للعمل في الحقول، وهو أمر لم يبال به سكان القرية، الذين كانوا في الماضي مزارعي أفيون وتحولوا إلى حراس على أرواحنا. وهكذا قضيت أيامي وراء باب موصد بإحكام أكثر مما في السابق، صحبة روايات غربية. تركتُ روايات بالزاك جانبًا، لأنها تثير ولع ليو، حصرًا، ووقعت بالتناوب، وضمن نزق أعوامي التسعة عشر أو رصانتها، في حبّ فلوبير، وغوغول، وملفيل، وحتى رومان رولان.

لنتحدث عن هذا الأخير، لم تكن حقيبة صاحب النظارة الأنفية تضم سوى كتاب واحد له، وهو الجزء الأول من رباعية جان- كريستوف. ونظرًا لكونها تتعلق بحياة موسيقار، وأنا بدوري عازف على الكمنجة، وقادر على عزف قطع موسيقية مثل «موزار يفكر في ماو»، فقد أغراني الكتاب بتصفحه، بطريقة المغازلة التي لا تفضي إلى خاتمة، خصوصًا وأن الترجمة تعود إلى السيد فو لي، مترجم بالزاك. لكنني ما إن فتحته حتى تعلقت به ولم أعد قادرًا على تركه. كانت كتبي المفضلة آنذاك تتمثل في المجموعات القصصية التي تقدم لك حكاية جيدة الحبكة، مع أفكار ذكية، تكون مسلية أحيانًا، أو مع تشويق يقطع الأنفاس، أي تلك الحكايات التي ترافقك طيلة حياتك. أما الروايات الطويلة، مع استثناءات قليلة، فقد ظللتُ حذرًا في تعاطيها. غير أن جان - كريستوف بنزعته الفردانية الشرسة والخالية من الدناءة، جعلني أكتشف معنى

الخلاص. ولولاه لما اكتشفت عظمة الفردانية وألقها. وحتى ذلك اللقاء المسروق مع جان - كريستوف، كان رأسي البائس والخاضع للتأهيل، يجهل بكل بساطة أن هناك إمكانية لصراع الفرد مع العالم بأسره. وهكذا تحولت المغازلة إلى حب كبير. ولم تزعجني مبالغات المؤلف أو تؤثر في إعجابي بجمال الرواية. لقد ابتلعني ذلك النهر المتدفق في مئات الصفحات. كان ذلك بالنسبة لي كتاب الحلم: تنتهي من قراءته فلا تظل حياتك كما كانت ولا يبقى عالمك كما كان.

ومن شدة تعلقي بكتاب جان - كريستوف أردت، لأول مرة في حياتي، امتلاكه وحدي، من دون مشاركة ليو. فكتبت على الصفحة البيضاء من الغلاف الداخلي إهداءً أقول فيه إن هذا الكتاب هو هدية لعيد ميلادي العشرين الذي سيحلّ قريبًا، وجعلت ليو يوقع على الإهداء. قال لي إنه يشعر بالسعادة لأن هذه الفرصة النادرة، ومن شدة ندرتها، باتت تشكل لحظة تاريخية. وهكذا خطط اسمه بعناية لا تخلو من جمال وجموح، جامعًا بين الحروف الثلاثة في قوس يكاد يحتل نصف الصفحة. ومن جهتي أهديته ثلاث روايات لبالزاك: الأب غوريو، أوجيني غرانديه، وأورسولا ميرويه، مشيرًا إلى أنها هدية العام الجديد الذي يحلّ بعد بضعة أشهر. وتحت إهدائي رسمت ثلاثة أشياء تمثل حروف اسمه الثلاثة باللغة الصينية؛ رمزت إلى الحرف الأول بحصان يصهل راكضًا، وعرف عنقه متطاير في الهواء، وللحرف الثاني بسيف طويل وحاد مع

مقبض من العظم منقوش بعناية ومرصع بالألماس. أما الحرف الثالث فقد رمزت إليه بجلجل، أو جرس للماشية، طوَّقتُه بعدة خطوط جعلَتْه يبدو كأنه يتحرك ويرن لطلب النجدة. وبلغ فرحي بذلك التوقيع حدًّا كدت معه أن أريق بضع قطرات من دمي، كي أضفي عليه نوعًا من القداسة.

حوالي منتصف الشهر هبت عاصفة عنيفة على الجبل، ودامت ليلة كاملة. هطل المطر بغزارة. مع ذلك، ومنذ الساعات الأولى من فجر الغد، انطلق ليو مع «الأب غوريو» في سلة الخيزران، مصرًّا على طموحه في خلق فتاة جميلة ومثقفة. وهكذا اختفى مثل فارس وحيد، لكن من دون فرس، في ضباب الدرب الصباحي، قاصدًا قرية الخياطة الصغيرة.

ولكي لا يخرق المحظور الجماعي الذي تفرضه السلطة السياسية، فقد عاد مساء، وبكل تهذيب، إلى بيتنا المرفوع على أعمدة. في تلك الليلة حكى لي أنه اضطر، في الذهاب كما في الإياب، إلى تسلق ممرّ ضيق، خطر، تشكل من انهيار التربة، بعد مرور العاصفة. واعترف لي قائلاً:

- أنتَ، والخياطة الصغيرة، كان في إمكانكما الركض بسهولة في ذلك الممرّ الضيق، أما أنا فقد أصبت بالهلع رغم سيري البطيء على أربع.

- وهل كان طويلاً؟

- بطول أربعين مترًا على الأقل.

كان ذلك لغزًا بالنسبة لي: لا يجد ليو صعوبة في أيّ

شيء، باستثناء الأماكن العالية. إنه مثقف لم يتسلق شجرة في حياته. أتذكر تلك الظهيرة البعيدة، قبل خمسة أعوام أو ستة، عندما رغبنا في صعود سلم حديدي صدئ في خزان الماء. أصيب منذ البداية بخدوش من الحديد الصدئ، في كفيه، ونزف قليلا. ولما بلغ ارتفاع خمسة عشر متراً، قال لي: «أشعر بأن درجات السلم ستنهار تحت قدميّ مع كل خطوة» وزاد ألم يديه المخدوشتين في قلقه. وانتهى به الأمر إلى التخلي عن الصعود لأفعل ذلك وحدي. ومن قمة البرج قذفته ببصقة ساخرة ما لبثت أن اختفت في الريح. مرت السنون وظل خوفه من الأماكن العالية قائما. وفي الجبل، كما قال، كنا، أنا والخياطة الصغيرة، نركض فوق صخور الجرف بلا تردد. وما إن نبلغ الجانب الآخر حتى يتوجب علينا انتظار ليو، مدة طويلة، لأنه لا يتجرأ على التقدم واقفا، فيتسلق الصخور على أربع.

ذات يوم، أردت الخروج والتمتع بهواء نقي، فرافقته في رحلة الحجّ إلى الجَمَال، أي إلى قرية الخياطة الصغيرة.

وفي الممرّ الخطر الذي حدثني عنه ليو، تحولت نسمة الصباح إلى ريح قوية تهب على الجبل. فأدركت، من أول نظرة، مدى الصعاب التي تجشَّمها ليو، متجاوزاً قدراته، لاجتياز ذلك الممرّ. حتى أنا كنت أرتجف هلعا مع كل خطوة أخطوها.

انهار حجر تحت جزمتي اليسرى، وفي الوقت نفسه

تقريبا، أسقطتْ جزمتي اليمنى مدرات من التربة، فتلاشت في الفراغ ومرّ وقت طويل قبل سماع صوت ارتطامها الذي دوّى بصدى بعيد في الجرف الأيمن، ثم الأيسر.

لم اكن أجرؤ على النظر إلى الأسفل وأنا واقف في ذلك الممرّ الذي لا يتجاوز عرضه ثلاثين سنتمتراً، والمشرف على هاوية من كل جهة: على اليمنى يوجد جدار صخري، متقطع، أجرد، ذو عمق مدوخ، مع أشجار لم تعد خضراء غامقة الاخضرار بل لاحت بلون رمادي مبيضّ، ضبابي، غير واضح المعالم. وعندما نقلت بصري إلى الجرف الأيسر بدأت أذناي تطنان فجأة: فقد انهارت التربة بطريقة عنيفة ومذهلة، وشكلت منحدراً عمودياً يتجاوز الخمسين متراً.

من حسن الحظ أن ذلك الممرّ الخطر لا يتجاوز الثلاثين متراً. في الطريق الآخر، كان هناك غراب ذو منقار أحمر يقف على صخرة عالية، ورأسه مغروز في عنقه بشكل مريع. سألت ليو بنبرة مرحة وقد ظل واقفًا في بداية الممرّ:

- هل تريد أن أحمل السلة؟

- نعم، خذها.

عندما وضعتها على ظهري هبت ريح عاتية فازداد طنين أذنيّ. فما إن أحرك رأسي حتى تزودني تلك الحركة بدوار خفيف، مقبول، يكاد يكون ممتعًا. تقدمت بضع خطوات. ثم التفت ورأيت ليو لا يزال في المكان نفسه وخياله يترنح قليلاً أمام عينيّ، مثل شجرة في الريح.

نظرت إلى الأمام وتقدمت مترًا مترًا مثل بهلوان. لكن، في منتصف المسافة، بدأت صخور الجبل المقابل، حيث يوجد الغراب ذو المنقار الأحمر، تميل بقوة نحو اليمين، ثم نحو اليسار، كما في زلزال. فورًا، وباستجابة غريزية، انحنيت، ولم يكفّ الدوار الذي أصابني إلا عندما توصلتْ يداي إلى ملامسة الأرض. كان العرق يتصبب على ظهري وصدري وجبيني. مسحتُ صدغيّ بيدي، ما أبرد ذلك العرق!

التفتُّ نحو ليو، صرخ صوبي بكلام لم أتبينه. كانت أذناي مسدودتين تقريبًا، بحيث لم يؤد صراخه إلا إلى زيادة الطنين فيهما. رفعت عينيَّ متفاديًا النظر إلى الأسفل فرأيت، في ضوء الشمس المبهر، شبح ذلك الغراب الأسود وهو يحوم فوق جمجمتي خافقًا جناحيه ببطء.

«ماذا ألمّ بك؟» سألت نفسي.

في تلك اللحظة، وأنا محشور وسط ذلك الممرّ تساءلت عما يقوله الشيخ جان - كريستوف لو أنني تراجعت متقهقرًا. كان يتأهب ليدلني على الوجهة بعصا قائد أوركسترا؛ تصورت أنه ما كان ليشعر بالخجل من الانسحاب أمام خطر الموت. وهل أموت شخصيًا قبل اكتشاف الحب، والجنس، والصراع ضد العالم بأسره، كما فعل هو!

تملكتني الرغبة في الحياة. درت حول نفسي، جاثيًا على ركبتيّ دائمًا، وعدت خطوة خطوة إلى بداية الممرّ. ولولا يداي المتشبثتان بالأرض لفقدت توازني وانتهى بي الأمر إلى

السقوط وتهشُّم عظامي في قعر الجرف. فجأة فكرت في ليو. لا شك أنه خبِر مثل هذا الوهن، قبل التوصل إلى بلوغ الجانب الآخر.

كنت أقترب منه فيزداد صوته وضوحًا. لاحظت أن وجهه كان شديد الشحوب، كما لو كان أشد خوفًا مني. صرخ بي أن أجلسَ أرضًا وأتقدم مفرشخًا. اتبعت نصيحته، وبالفعل يسَّر لي الوضع الجديد رغم مهانته، إمكانية الالتحاق به بكل أمان. وعندما بلغت طرف الممرّ، وقفت وأعدت إليه سلته.

ـ مررت بكل هذا يوميًا؟ سألته.

ـ كلا، في البداية فقط.

ـ ودائمًا يكون هناك؟

ـ من؟

ـ هو.

وبإصبعي أشرت إلى الغراب ذي المنقار الأحمر الذي حطّ وسط الممرّ حيث توقفت قبل قليل.

ـ نعم، يكون هناك كل صباح. كأنه على موعد معي، قال لي ليو، لكنني لا أراه قطّ لدى عودتي في المساء.

وبما أنني رفضت مهانة الدوار مرة أخرى، فقد تولى حمل السلة على ظهره وانحنى في هدوء حتى لامست يداه الأرض، ثم بدأ يقدم يديه، فرجليه، بتناوب وانسجام. وكانت قدماه تكادان تلامسان يديه مع كل خطوة. بعد بضعة أمتار توقف وبدا كأنه يحاول تحيَّتي بحركة طريفة، حرك ردفيْه على طريقة

قرد حقيقي يتسلق غصن شجرة بأطرافه الأربعة. طار الغراب ذو المنقار الأحمر، وحام حول نفسه خافقًا بجناحيه العريضين في الهواء.

لم أخفِ إعجابي، ومكثت أراقب ليو بنظري حتى آخر الممرّ الذي سميته «المطهر» حتى اختفى وراء الصخور. فجأة تساءلت، مع شعور ببعض التخوّف، عن مآله مع حكاية بالزاك والخياطة الصغيرة، وكيف ستكون الخاتمة. وزاد رحيل الطائر الأسود الكبير في القلق المنبجس من صمت الجبل.

في الليلة التالية استيقظت مذعورًا.

استغرقت عودتي إلى الواقع المألوف والآمن، عدة دقائق. سمعت في العتمة إيقاع تنفس ليو، في السرير المقابل. فتشت، تلمّسًا، عن سيجارة، ثم أشعلتها. وشيئًا فشيئًا استعدت هدوئي بوجود الخنزيرة، ولطمها جدار الحظيرة تحت بيتنا المرفوع على أعمدة، وتمكنت، على الطريقة المسرَّعة في عرض فيلم، من العودة إلى رؤية الحلم الذي أيقظني مذعورًا:

من بعيد كنت أشاهد ليو يمشي صحبة فتاة عبر الممرّ الضيق المدوّخ والمحفوف بهاوية من كلّ جانب. في البداية كانت الفتاة السائرة في المقدمة هي ابنة حارس المستشفى الذي يعمل فيه أهلنا. وهي فتاة من صفّنا، متواضعة، عادية، نسيتُ وجودها منذ سنين. وفيما كنت أبحث عن سبب ظهورها غير المتوقع بجانب ليو، في هذا الجبل، تحولتْ إلى شخصية الخياطة الصغيرة، بحيويتها، ومزاحها، وكنزتها البيضاء،

وسروالها الأسود. لم تكن تمشي بل تركض في الممرّ مثل عدّاء بينما عشيقها الشاب، ليو، يتبعها ببطء، وعلى أربع. لا أحد منهما يحمل سلة على ظهره. ولم تظهر ضفيرة الخيّاطة الصغيرة المعتادة، بل كان شعرها المنسدل على كتفيها يتطاير لدى ركضها مثل جناح. بحثت سدى عن الغراب ذي المنقار الأحمر، وعندما حط نظري من جديد على صديقيَّ، كانت الخياطة الصغيرة قد اختفت. كان ليو وحده. ولم يكن مفرشخًا بل لاح جاثيًا على ركبتيه وسط الممرّ، وعيناه ترمقان الجرف الأيمن. بدا كأنه يصرخ لي بشيء ما، وهو ينظر ناحية الهاوية. لكنني لم أسمع شيئًا. اندفعت نحوه، من دون أن أعرف من أين جاءتني شجاعة الركض عبر ذلك الممرّ. ولدى اقترابي منه أدركت أن الخياطة الصغيرة قد سقطت في الجرف. ورغم وعورة المكان فقد نزلنا متزحلقين عموديًا على امتداد الجدار الصخري... عثرنا على جسدها في القاع، مرتطمًا بصخرة، وقد دخل رأسها في بطنها بعد أن تهشم تمامًا. ظهر شقان كبيران في مؤخرة جمجمتها وقد تخثر فيهما الدم وبدأ يتيبس. أحد الشقّين امتد حتى جبينها ذي الملامح البارزة. كان فمها المفتوح يكشف عن لثتها الوردية وأسنانها المشدودة، كما لو أنها بكماء وأرادت الصراخ، فلم تخرج سوى رائحة الدم. وعندما احتضنها ليو بين ذراعيه انبجس الدم، في وقت واحد، من فمها ومنخرها الأيسر، ومن إحدى أذنيها؛ سال الدم على ذراعي ليو، ثم انتشر قطرة قطرة على الأرض.

عندما رويت الكابوس لصديقي ليو، لم يظهر عليه أي تأثر.

ـ انسَ ذلك، قال لي، أنا أيضًا رأيت كثيرًا من الكوابيس على شاكلة ما رأيت.

سألته وهو يبحث عن سترته وسلّته:

ـ ألن تنصح صديقتك بعدم سلوك هذا الممرّ؟

ـ أنت مجنون! هي أيضًا ترغب في المجيء لزيارتنا بين فترة وأخرى.

ـ ليكن ذلك لفترة محدودة، إلى أن يتم إصلاح ذلك الممرّ اللعين.

ـ طيب، سوف أطلب منها ذلك.

بدا مستعجلاً. وشعرت بنوع من الغيرة من موعده المعتاد مع الغراب المريع ذي المنقار الأحمر.

ـ لا تحدثها عن حلمي.

ـ لا تقلق.

مع عودة شيخ قريتنا توقف مؤقتًا حج الجَمال الذي أدمنه صديقي ليو يوميًا بحماسة لا تكل.

ويبدو أن مؤتمر الحزب، وشهرًا من الحياة المدينية، لم يروقا كثيرًا لزعيمنا الشيخ. بدا كأنه في حِدَاد، بحَنك متورّم، ووجه شوهه الغضب من طبيب ثوري في مستشفى المقاطعة: «ابن العاهرة، ذلك الطبيب المغفل؛ بقدميه الحافيتين، لقد اقتلع سني السليمة وترك النخرة التي بجانبها». وما زاد في غضبه أن النزيف الناجم عن قلع سنه السليمة بات يمنعه من الكلام، ومن الزعيق بهذه الفضيحة، ويجبره على الهمهمة بكلمات لا تكاد تسمع. كان يظهر لكل مهتم بآلامه آثار تلك العملية: سِنْخ، أو بقية سنّ مسودة، طويلة، مدبّبة، ذات جذر مصفرّ، يحافظ عليها ملفوفة في قطعة صغيرة من الساتان الأحمر الحريري، الذي اشتراه من معرض ينغ جنغ.

وبما أنه صار يهتاج لأدنى عصيان، فقد اضطررنا، أنا وليو، إلى الذهاب للعمل كل صباح في حقول الذرة أو الأرز. حتى إننا انقطعنا عن التعامل مع منبِّهنا السحري الصغير.

ذات مساء ازدادت آلام أسنانه فحلّ بيننا عندما كنا

منهمكيْن في إعداد عشائنا في قاعة الأكل. أخرج قطعة صغيرة من المعدن، ملفوفة في القطعة المربعة من الساتان الأحمر مع سنّه.

- إنها قطعة من القصدير الحقيقي، قال لنا، لقد اشتريتها من بائع متجول. لو وضعتموها على النار لذابت خلال ربع ساعة.

لم يبدر منا أي رد فعل. وتملكتنا الرغبة في الضحك أمام وجهه المنتفخ حتى أذنيه، كما في شريط كوميدي رديء.

- عزيزي ليو، قال الزعيم الشيخ، بنبرة صادقة لم يسبق لها مثيل، لا شك انك رأيت والدك يفعل هذا، آلاف المرات: عندما يذوب القصدير، يبدو أن الأمر لا يتطلب أكثر من وضع القليل منه في السن النخرة كي يقتل الديدان التي في داخلها، من المؤكد أنك تعرف ذلك أفضل مني. أنت ابن طبيب أسنان معروف، أعتمد عليك لإصلاح سني.

- تريد مني أن أضع بعض القصدير على سنك، صحيح؟

- نعم. وإذا كف الألم سوف أعطيك إجازة لمدة شهر.

حذره ليو وهو يقاوم الإغراء:

- القصدير لا ينفع، قال. زد على ذلك أن لوالدي آلات حديثة. فهو يثقب السن بجهاز كهربائي أولا، قبل حشوه بأي شيء.

احتار الشيخ، فوقف، وغادرنا مغمغماً:

- هذا صحيح، لقد رأيته يفعل ذلك في مستشفى المقاطعة.

ذلك الغبي الذي اقتلع سني السليمة كان مزودا بإبرة سميكة تدور محدثة صوتَ محرك.

بعد بضعة أيام، تم القضاء على أوجاع الزعيم بفضل قدوم الخياط، والد صديقتنا، مع آلة الخياطة اللامعة التي كانت تعكس أشعة الشمس الصباحية وهي بين ذراعي أحد العتالين.

لا نعرف إن كان يتظاهر بالأهمية والانشغال، أم أنه، بكل بساطة، كان عاجزًا عن تنظيم وقته بصرامة. فقد أجل موعده الطقسي، المعتاد سنويًا، مع سكان القرية، لأكثر من مرة. كان ذلك اللقاء، بالنسبة لهم، يشكل سعادة حقيقية، لأنه يظهر قبل بضعة أسابيع من بداية العام الجديد، بهيئته النحيلة وآلة الخياطة.

وكعادته جاب القرى من دون مرافقة ابنته. وعندما التقيناه، قبل بضعة أشهر، في درب ضيق وزلق، كان يجلس على كرسي حمالين بسبب المطر والوحل. أما في هذه المرة، فقد كانت الشمس مشرقة، لذلك جاء مشيًا على قدميه، مع طاقة فتية لم يؤثر فيها سنه المتقدم. كان يعتمر قبعة خضراء ناحلة اللون، ولا شك أنها القبعة نفسها التي استعرتها لدى زيارتنا إلى الطحان الهرم في جرف المائة متر، كما يرتدي سترة زرقاء واسعة، مفتوحة كثيرًا على قميص، من الكتّان البنّي الفاتح، ذي أزرار تقليدية من القطن، بينما يلمع في خصره حزام أسود من الجلد الحقيقي.

جاءت القرية كلها لاستقباله. وعمّ جوّ احتفالي بفضل

الأطفال الذين ركضوا وراءه، والنساء اللواتي أخرجن، ضاحكات، أقمشتهن الجاهزة منذ شهور، وانفجار بعض المفرقعات، وقباع الخنازير. ودَعَتْه كل عائلة للإقامة عندها طمعًا في أن تحتل مرتبة الزبون الأول. لكن المفاجأة الكبرى للجميع حدثت عندما أعلن الشيخ:

- سأقيم عند صديقيْ ابنتي الشابين.

تساءلنا عن الدوافع الخفية وراء هذا الاختيار. وحسب تحليلنا، قد يكون الخياط الهرم راغبًا في تحقيق اتصال مباشر بصهره المحتمل، لكن، ومهما كان الأمر، فإنه يوفر لنا فرصة التعاطي مع الرفقة الأنثوية، ومع ذلك الوجه من طبيعة النساء التي ظلت حتى ذلك الوقت مجهولة بالنسبة إلينا. وسوف يتم كل ذلك في بيتنا المحمول على أعمدة بعد تحويله إلى مشغل خياطة. وهكذا صار الوضع أشبه بمهرجان فوضوي حيث نساء من كلّ الأعمار، جميلات أو بشعات، ميسورات أو فقيرات، يتنافسن في مضمار الأقمشة، والدانتيلا، والأشرطة، والأزرار، والخيطان، والأفكار المتعلقة بالملابس التي يحلمن بها. كنا، أنا وليو، نكاد نختنق أثناء جلسات القياس والتجريب، بسبب هياجهنّ، ونفاد صبرهن، والرغبة شبه الجسدية التي كانت تتفجر فيهنّ. ما من نظام سياسي، ما من ضغط اقتصادي، ليجبرانهن على هجر رغبتهنّ في الظهور بثياب جميلة، وهي رغبة قديمة قدم العالم، قدم الرغبة في الإنجاب والأمومة.

مع حلول المساء يتكدس البيض واللحم والخضار والفواكه التي يأتي بها القرويون للخياط الهرم. فتبدو كأنها تقدمات وقرابين خاصة بطقس من الطقوس، في قاعة الأكل. وكان ثمة رجال يأتون فرادى، أو ضمن جماعات صغيرة، ليختلطوا بحشد النساء. والأكثر خجلاً بينهم يجلسون أرضًا، حول النار، حفاة الأقدام، مطأطئي الرؤوس، ولا يرفعون عيونهم باتجاه الفتيات إلا بطريقة خفية. وكانوا ينشغلون بقص أظافر أصابع أقدامهم، وهي أظافر صلبة مثل الحجر، وذلك بواسطة النصل القاطع في مقصات الأشجار التي بحوزتهم. وثمة آخرون، أكثر تجربة، وأشد عدوانية، يمزحون بلا حياء، ويتوجهون إلى النساء بتلميحات ذات درجات متفاوتة في البذاءة. ولا بد، عندئذ، من سلطة الخياط المنهك، النزق، للتوصل إلى إخراجهم.

بعد عشاء ثلاثي سريع لكنه لم يخلُ من الهدوء والمجاملة، ضحكنا خلاله من لقائنا الأول في الدرب، اقترحتُ على ضيفنا عزف مقطوعة على الكمنجة قبل الالتحاق بالفراش. لكنه، بجفنيه شبه المطبقتين، أبدى رفضه لذلك.

- أفضّل أن ترويَا لي حكاية، طلب منا ذلك وهو يتثاءب طويلاً، قالت لي ابنتي إنكما تجيدان ذلك. ولهذا السبب فضلتُ الإقامة معكما.

ويبدو أن ليو انتبه لتعب خياط الجبل، أو أنه أراد التواضع أمام حميه القادم، فاقترح عليّ الاستجابة لطلبه.

ـ هيا، حثني مشجعًا، احكِ لنا حكاية لا أعرفها.

وافقت، مترددًا قليلاً، على تمثيل دور حكواتي منتصف الليل. وقبل البدء كنت قد تسلحت بالحذر، فطلبت من مستمعيَّ أن يغسلا الأقدام بالماء الساخن، والتمدّد على أحد السريرين، وذلك تفاديًا لاحتمال أن يناما جالسين خلال سردي للحكاية. أخرجنا بطانيتين سميكتين ونظيفتين، ودعونا ضيفنا إلى التمدد على فراش ليو، بينما انحشرنا، أنا وليو، في فراشي. وعندما بدا كل شئ جاهزًا وازداد تثاؤب الخياط إنهاكًا وجلبة، أطفأت القنديل لأسباب اقتصادية، وانتظرت بعينين مغمضتين ورأسي على المخدة، انبجاس أول جملة أبدأ بها الحكاية.

كان من شأني اختيار فيلم صيني، أو كوري شمالي، أو حتى ألباني، لو أنني لم أتذوق طعم الفاكهة المحرّمة، من حقيبة صاحب النظارة الأنفية. أما الآن، فإن تلك الأفلام ذات الواقعية العمالية العدوانية، والتي شكلت في السابق تربيتي الثقافية، بدت لي أبعد ما تكون عن الرغبات الإنسانية، وعن الألم الحقيقي، وعن الحياة خصوصًا. لذلك لم أجد مبررًا لتجشم عناء روايتها في مثل تلك الساعة المتأخرة. فجأة خطرت ببالي رواية كنت قد انتهيت من مطالعتها. وكنت متأكدًا من أن ليو لم يطلع عليها بعد، لأنه مشغوف ببالزاك وحده.

نهضت، وجلست على حافة السرير، وتأهبت للنطق بالجملة الأولى؛ الجملة الأصعب والأدق؛ كنت أرغب في

جملة رصينة.

ـ نحن الآن في مرسيليا، العام 1815.

دوى صوتي في عتمة الغرفة الحالكة.

ـ أين توجد مرسيليا ؟ قاطعني الخياط بصوت ناعس.

ـ في الطرف الآخر من العالم. إنها مرفأ كبير في فرنسا.

ـ ولِمَ تريد منا الذهاب إلى مثل ذلك المكان البعيد؟

ـ أردت أن أقصّ عليكما حكاية بحار فرنسي. لكن إذا كنت غير راغب في ذلك فمن الأفضل النوم مباشرة. تصبح على خير!

اقترب مني ليو في العتمة، وهمس لي:

ـ أحسنت صنعًا يا صديقي!

بعد دقيقة أو دقيقتين سمعت صوت الخياط مجدداً:

ـ وما هو اسم بحَّارك؟

ـ في البداية كان يدعى إدمون دانتيس، ثم صار الكونت دي مونت - كريستو.

ـ كريستو؟

ـ إنه اسم آخر ليسوع، ويعني المسيح، أو المخلّص.

هكذا بدأت حكاية ألكسندر دُوما. ومن حسن حظي أن ليو كان يقاطعني، بين حين وآخر، كي يهمس بتعليقات بسيطة وذكية؛ لقد بدأ يزداد تعلقًا بالحكاية، الأمر الذي وفر لي إمكانية التركيز والتخلص من الارتباك الذي سبّبه لي الخياط. ولا شك أن هذا الأخير قد أُرهق بكثرة تلك الأسماء

الفرنسية، وتلك الأماكن النائية، وكذلك يومه المضني في العمل، فكفّ عن النطق ولو بكلمة واحدة بعد بداية الحكاية. لقد لاح مستغرقاً في نوم عميق.

وشيئًا فشيئًا انتصرت فاعلية المعلم دُومَا، ونسيتُ ضيفنا تمامًا؛ وشرعت أحكي، وأحكي، وأحكي المزيد... صارت جملي أكثر دقة وكثافة ووضوحًا. وتوصلت، ببذل بعض الجهد، إلى المحافظة على رصانة الجملة الأولى. لم يكن ذلك أمرا سهلا. حتى أنني فوجئت إيجابيا وأنا أروي الحكاية، باكتشاف أسلوبها السردي وإظهارها لموضوعة التأثر، من خلال الخيوط التي حبكها المؤلف كي يتسلى بجذبها لاحقًا، بيد صارمة وماهرة، وجريئة غالبًا؛ كان ذلك أشبه برؤية شجرة كبيرة مقتلعة من جذورها، عارضةً على سطح الأرض نبل جذعها، ورحابة أوراقها، وعري جذورها السميكة.

لست أدري كم انقضى من الوقت. ساعة؟ ساعتان؟ أكثر؟ لكن، عندما وصل بطلنا، البحار الفرنسي، إلى السجن، حيث سيمضي عشرين عامًا، أجبرني التعب، دون أن يكون مفرطًا، على التوقف.

- الآن، همس لي ليو، صرت أفضل مني. كان عليك أن تكون كاتبًا.

انتشيت بهذا المديح المتأتي من راوية موهوب، فاستسلمت إلى نصف إغفاءة. وفجأة سمعت صوت الخياط الشيخ يغمغم في الظلام.

ـ لماذا توقفت؟

ـ يا للمفاجأة! ألم تنم بعد؟

ـ أبدًا. لقد استمعت إليك؛ حكايتك أعجبتني.

ـ أشعر بالنعاس الآن.

ـ حاول أن تتابع قليلاً، أرجوك، ألحّ الخياط الهرم.

ـ القليل فقط، قلت له. هل تتذكر أين توقفت؟

ـ لحظة دخوله السجن في قلعة داخل البحر...

أدهشتني دقة هذا المستمع رغم تقدمه في السن، فتابعت حكاية بحّارنا الفرنسي... كنت أتوقف كل نصف ساعة، في اللحظات الحاسمة من الحكاية. ولم يكن ذلك بسبب التعب، بل انطلاقًا من الدلال البريء عند الراوي. كنت أنتظر التوسل كي أستجيب من جديد. وعندما كشف له رئيس الدير، المسجون معه في زنزانة البؤس، عن سرّ الكنز الكبير المطمور في جزيرة مونت - كريستو، وساعده على الهروب، تسلل ضوء الصباح إلى حجرتنا، عبر شقوق الجدران، مصحوبًا بالزقزقات الصباحية للقبّرات وطيور الترغل والشحرور.

أرهقتنا تلك الليلة البيضاء. وأجبِر الخياط على تقديم مبلغ صغير من المال إلى القرية حتى يسمح لنا الزعيم بالبقاء في البيت.

ـ استرحْ جيدًا، قال لي الشيخ، غامزًا بعينيه. وأعدَّ العدة لموعدي هذه الليلة مع البحار الفرنسي.

كانت تلك بالتأكيد أطول حكاية أرويها في حياتي: لقد

استغرقت تسع ليال بالتمام والكمال. ولم أفهم من أين كان يأتي الصمود الجسدي للخياط الهرم الذي يعمل طيلة نهار الغد. وبشكل محتوم بدأت تظهر على الأقمشة بعض التفصيلات البحرية. وكان من شأن دُوما أن يكون أول من يُفاجَأ لو أنه شاهد سكان جبلنا مقوْلبين في ما يشبه سترات ذات أكتاف متهدلة وياقات عريضة، مربعة من الخلف ومدببة من الأمام، تفرقع في الهواء. وتكاد تعبق برائحة البحر الأبيض المتوسط. أما السراويل الزرقاء الخاصة بالنوتية والتي أشار إليها دُوما، وفصّلها تلميذه الخياط الهرم، فقد غزت قلوب العذارى، بسيقانها العريضة الواسعة، وعطور الساحل اللازوردي التي تبدو متضوعة منها. طلب منا رسم مرساة ذات خمسة خطافات، فصارت النموذج الأكثر طلبًا في الموضة النسائية لتلك الأعوام، في جبل فينيق السماء. حتى إن بعض النساء نجحن في تطريزها بأمانة على أزرار صغيرة جدًا، بواسطة خيوط ذهبية. وبالمقابل حافظنا، من باب الغيرة، على بعض الأسرار التي وصفها دُوما بدقة، مثل الزنبقة المطرزة على قميص مرسيدس، وعلى مشدِّها وفستانها، من أجل الخيّاطة الصغيرة وحدها.

في نهاية الليلة الثالثة طرأ حادث كاد يفسد كل شئ. حدث ذلك حوالي الساعة الخامسة صباحًا. وصلنا إلى قلب الحبكة، أي إلى أجمل قسم في الرواية حسب رأيي: فقد نجح الكونت دي مونت - كريستو بحسابات دقيقة لدى عودته إلى باريس،

في رصد أعدائه الثلاثة الذين يريد الانتقام منهم. فكان يحرك بيادقه، واحدًا واحدًا، وفق استراتيجية حاذقة ومناورات شيطانية. وحان وقت القضاء المبرم على القاضي لأن الفخ الذي نُصب له أوشك على الإيقاع به. فجأة انفتح باب حجرتنا بصرير مروع، ولاح شبح أسود لرجل على العتبة، في اللحظة ذاتها التي وقع فيها بطلنا الكونت في حبّ ابنة القاضي، تقريبًا. طرد رجلُ الظلّ، بمصباحه اليدوي المضيء، الكونت الفرنسي وأعادنا إلى الواقع.

كان ذلك شيخ القرية معتمرًا قبعة. ازداد الانتفاخ في وجهه، فلاح مشوهًا أكثر بفعل الظلال السوداء التي كانت ترسمها عليه أضواء المصباح اليدوي. كنا مستغرقين في حكاية دُوما فلم ننتبه إلى وقع خطواته.

- أهلاً بك! صاح الخياط، كنت أتساءل عمّا إذا كنت سأحظى برؤيتك هذا العام. قيل لي إنك عانيت الكثير بسبب طبيب أسنان سيئ.

لم ينظر إليه زعيم القرية؛ بل تصرف كأنه لم يكن موجودًا. سلط عليَّ ضوء مصباحه اليدوي.

- ماذا هناك؟ سألته

- اتبعني. سوف نتحدث في مكتب الأمن العام التابع للبلدية.

لم يكن قادرًا على الزعيق بسبب أوجاع أسنانه، غير أن غمغمته التي لا تكاد تسمع جعلتني أهتز بقوة، ذلك أن اسم هذا المكتب يدلّ في معظم الأحيان على التعذيب الجسدي

ودخول الجحيم بالنسبة لأعداء الشعب.

ـ لماذا؟ سألته وأنا أشعل القنديل بيد مرتعشة.

ـ لأنك تحكي قذارات رجعية. ومن حسن حظ قريتنا أنني لا أنام قط، وأسهر باستمرار. ولا أخفي عنك الحقيقة: لقد كنت هنا منذ منتصف الليل، واستمعت إلى حكايتك الرجعية عن ذلك البحار فلان.

ـ اهدأ أيها الزعيم، تدخّل ليو قائلاً، هذا الكونت ليس صينيًّا.

ـ لا يهمني ذلك. ذات يوم سوف تنتصر ثورتنا في العالم بأسره! وأيّ كُونت، مهما كانت جنسيته، لا يمكنه إلا أن يكون رجعيًّا.

ـ انتظرْ أيها القائد، قاطعه ليو، أنت لم تستمع إلى بداية الحكاية. فهذا الرجل، قبل أن يتنكر بزي النبلاء، كان مجرد نوتي فقير، أي من فئة تنتمي إلى الفئات الأكثر ثورية، حسب «الكتاب الأحمر الصغير».

ـ لا تجعلني أضيع وقتي مع ثرثرتك! قال شيخ القرية. هل سبقت لك رؤية إنسان طيب يسعى إلى الإيقاع بقاضٍ؟

قال ذلك وبصق أرضًا، تلميحًا إلى أنه قد يلجأ إلى القوة إذا لم أتحرك.

توقفت، وقد وقعت في الفخ، واستسلمت. ارتديت سترة صوفية خشنة وسروالاً متينًا، مثل رجل يتهيأ لقضاء فترة طويلة في السجن. عندما أفرغت جيب قميصي وجدت فيه القطع

النقدية، فسلمتها إلى ليو حتى لا يستولي عليها جلاوزة الأمن العام. رمى ليو بالقطع النقدية على الفراش.

ـ سآتي معك، قال لي.

ـ كلا، ابقَ هنا، واعتنِ بكل شيء، في السراء وفي الضراء.

عندما نطقت بهذه الكلمات بذلت جهدًا لحبس دموعي. أدركت من عينيْ ليو أنه فهم قصدي: أن يخفي الكتب جيدًا، تحسبًا لاحتمال الوشاية به تحت التعذيب. لم أكن متأكدًا من قدرتي على تحمل اللّكم والضرب والجلد، وهذا ما يقال إنه يحدث خلال الاستجواب في ذلك المكتب. ومثل أسير كسير، توجهت نحو شيخ القرية، مرتجف الساقين، تمامًا كما حدث لي عندما خضت أول معركة في طفولتي، إذ ارتميت على خصمي لأظهر له أنني شجاع، لكن ارتجاف ساقيَّ خانني.

كانت أنفاسه تشي بالتسوس. واستقبلتني عيناه الصغيرتان وقطراتهما الدموية الثلاث، بنظرة قاسية. اعتقدت، لوهلة، أنه سيمسك بي من ياقتي ويلقي بي إلى أسفل السلم. لكنه مكث بلا حراك. أشاح بنظره عني، ليحط به على قضبان السرير، ثم يثبته على ليو، سائلاً إياه:

ـ أتذكر قطعة القصدير التي أريتك إياها؟

ـ لا أذكرها جيدًا، أجاب ليو مضطربًا.

ـ تلك القطعة الصغيرة التي طلبت منك أن تضعها في سنيّ المريضة.

ـ نعم، الآن أذكرها.

- مازالت عندي، قال زعيم القرية وهو يخرج من جيب سترته تلك الصرّة الصغيرة من الساتان الأحمر.

- إلى أين تروم الوصول؟ سأله ليو، أكثر اضطرابًا.

- إذا تمكنت أنت، ابن طبيب الأسنان الشهير، من معالجة سني، فأنا مستعد لترك صديقك في سبيل حاله. أما إذا رفضت فسوف أنقل هذا الحكواتي القذر، راوية الحكايات الرجعية، إلى مكتب الأمن العام.

* * *

تلوح أسنان زعيم القرية مثل سلسلة جبال مثلّمة. فعلى لثة مسودة ومتورمة، تنتصب ثلاث قواطع أشبه بصخور بازلتية من مرحلة ما قبل التاريخ، ذات لون داكن. بينما تقترب أنيابه من صخور الحقبة الطوفانية، أي الحجارة الجيرية الكامدة بلون التبغ. أما الأضراس، فبعضها يلوح محزّزًا في موضع التاج. وما أكده ابن طبيب الأسنان بنبرة تشخيصية، إنما يشير إلى إصابة قديمة بالزهري. ولقد أشاح زعيم القرية بوجهه من دون أن ينفي هذا التشخيص.

كانت السن المسؤولة عن أوجاعه توجد في آخر الحنك منتصبة قرب ثقب أسود مثل عقبة كلسية، صدفية، متوحدة، ومهدّدة. إنها سن الحِلم، أو ضرس العقل، وقد تفسخ ميناؤها وعاجها، ونخرها السوس. ولم يكفَّ لسان شيخ القرية اللزج، ذو اللون الوردي المائل إلى الصفرة، عن سبر عمق الثقب المجاور، الناجم عن خطأ طبيب الأسنان الآخر، ثم العودة

لمداعبة العقبة المعزولة، لينتهي بجعلنا نسمع طقطقة انفراج.

اندست إبرة من الفولاذ المطلي بالكرومْ، تعود إلى آلة خياطة، وهي أسمك من الإبرة المعتادة قليلاً، في فم شيخ القرية المفتوح، وتوقفت فوق ضرس العقل. لكن، ما أن لامستها بلطف حتى اندفع لسان الزعيم نحو العنصر الدخيل في حركة ارتكاسية سريعة جدًا، وتفحص ذلك الجسم البارد، المعدني الغريب، حتى طرفه المدبب: عندئذ انتابته اختلاجة. تراجع لسانه كأنه مدغدغ ثم عاد إلى الهجوم، وعندما استثاره الإحساس المجهول، لعق الإبرة بتلذّذ تقريبًا.

ارتجت دوّاسة آلة الخياطة تحت قدمي الخياط الهرم. أما الإبرة المتصلة ببكرة آلة الخياطة فقد بدأت تدور؛ ارتعب لسان الزعيم فتشنج. كان ليو يمسك بالإبرة بطرفي إصبعيه فعدل من وضعية يده. انتظر بضع ثوان حتى ازدادت سرعة الدواسة، وهكذا هجمت الإبرة على موضع التسوس، وجعلت المريض يطلق صيحة ممزقة. وما إن أبعد ليو الإبرة حتى انهار الشيخ، مثل صخرة، من الفراش الذي وضع بجانب آلة الخياطة، ووجد نفسه ملقى على الأرض.

- كدت تقتلني! قال مخاطبا الخياط ومعدلا من سقوطه، هل تسخر مني؟

- لقد نبهتك، أجاب الخياط ، بأنني رأيت هذا، في الأسواق الشعبية. وأنت من أصر، كي نلعب دور المشعوذين.

- كم هي عملية موجعة، قال شيخ القرية.

ـ لا يمكن تفادي الألم، أكد ليو. هل تعرف مدى سرعة الآلة الكهربائية في المستشفيات الحقيقية؟ إنها تبلغ مئات الدورات في الثانية. وكلما كانت الإبرة أبطأ كان الألم أشد.

ـ حاول مرة أخرى، قال شيخ القرية بحسم، معدِّلا من وضع قبعته. مر أسبوع وأنا غير قادر على الأكل أو النوم، ومن الأفضل التوصل إلى حل نهائي.

أغمض عينيه كي لا يرى الإبرة تدخل فمه. لكن النتيجة كانت مشابهة. فقد دفع به الألم الفظيع خارج الفراش، والإبرة مغروزة في فمه.

أدت حركته العنيفة إلى تمايل القنديل الذي كنت أذيب فوق شعلته قطعة القصدير في ملعقة.

ورغم الوضع المسلّي، لم يجرؤ أحد على الضحك، خشية أن يعود إلى موضوع اتهامي.

استعاد ليو الإبرة ومسحها ثم مد كوب ماء إلى شيخ القرية كي يتمضمض: فبصق دما، قرب قبعته تماما.

اندهش الخياط الهرم:

ـ أنت تنزف، قال.

ـ إذا أردت التخلص من التسوس حقا، قال ليو وهو يلتقط القبعة ويضعها على رأس شيخ القرية المشعث، فأنا لا أرى من حل آخر سوى ربطك إلى السرير.

ـ تريد ربطي؟ صاح الزعيم، مغتاظا. هل نسيت بأنني مفوض من إدارة البلدية!

- بما أن جسدك يرفض التعاون لا بد من المجازفة...

فاجأني قراره حقا؛ ولقد تساءلت، وكررت التساؤل، ومازلت إلى اليوم أكرر التساؤل نفسه: كيف أمكن لذلك الطاغية السياسي والاقتصادي، شرطي القرية، أن يوافق على اقتراح يجعله في موقف جامع بين الهزء والمهانة؟ أيُّ شيطان كان يسكن رأسه؟

آنذاك لم أفكر في المسألة. كتّفه ليو بسرعة. ووجد الخياط نفسه أمام مهمة أصعب تتمثل في الإمساك برأس زعيم القرية بين يديه، فطلب مني تعويضه على دواسة آلة الخياطة.

تحملت مسؤوليتي الجديدة بجدية تامة. خلعت حذائي. وما إن لمس أخمص قدمي الدواسة حتى شعرت بأن ثقل مهمتي كله يقع على عاتق عضلاتي.

عند إشارة ليو، ضغطت قدماي على الدواسة لتشغيل آلة الخياطة. وسرعان ما انطلقتا مستجيبتين لإيقاع الآلة. زدت في السرعة كمن يشارك في سباق دراجات وقد بلغ طريقا واسعة؛ كانت الإبرة تختلج وترتعش وتلتحق من جديد بالعقبة الماكرة والمهددة. هذا الالتحاق تسبب في نشيش داخل فم الزعيم الذي صارع مثل مجنون محجوز في قميص مجانين. إذ أنه لم يكن مربوطا إلى السرير بحبل غليظ فحسب، بل كان مضغوطا أيضا بين يدي الخياط الحديديتين، وهو يمسك بعنقه ويؤلمه ويحشره في وضع جدير بمشهد سينمائي. كانت شفتاه تزبدان، وكان شاحب اللون يتنفس بصعوبة ويزمجر.

فجأة، وكما تنبثق حمم البركان، وبطريقة لاواعية، أحسست بدافع سادي ينبجس من أعماقي: أبطأت فورا من حركة الدواسة، تذكيرا بكل آلام إعادة التأهيل.

رمقني ليو بنظرة متواطئة.

خففت في السرعة أكثر، انتقاما، هذه المرة، من تهديداته باتهامي. صارت الإبرة تدور ببطء حتى باتت أشبه بثقابة متعبة، توشك على التعطل. بأية سرعة كانت تلف؟ دورة واحدة في الثانية؟ دورتان؟ من يدري؟ على أية حال توصلت إبرة الفولاذ المطلية بالكروم إلى ثقب النَّخْر. كانت تثقب، ثم تتوقف في أوج الحركة، عندما تتوقف قدماي عن الدوس، في استراحة مقلقة تشبه هذه المرة طريقة صاحب الدراجة الذي يكف عن تشغيل الدواسة في منحدر شديد الخطورة. كنت أتظاهر بالهدوء والبراءة. ولا تقتصر عيناي على التحول إلى فتحتين مشحونتين حقداً، إذ كنت أتظاهر بتفقد البكرة أو سير نقل الحركة. ثم تعود الإبرة إلى الدوران، إلى الارتجاج البطيء، كما لو أن متسابق الدرّاجة يتسلق، بصعوبة، مرتقى جبليًّا وعرًا. تحولت الإبرة إلى مقص، إلى إزميل حاقد يحفر حفرة في صخرة ما قبل التاريخ الداكنة، متسببا في انبعاث سحب تافهة من غبار الرخام الدبق، الأصفر، المتجبن. لم تسبق لي رؤية شخص ساديّ أكثر مني. أؤكد لكم ذلك. ساديّ مطلق العنان.

ما قاله الطحّان الهرم

نعم، أنا الذي رأيتهما، مختليَيْن بعضهما مع بعض، عاريين مثل دودتين. ذهبت لأحتطب في الوادي الخلفي، كعادتي، مرة في الأسبوع؛ أمرّ دائمًا عبر الجون، عبر الخليج الصغير الذي يشكله السيّل. أين بالضبط؟ على بعد كيلومتر أو اثنين من طاحونتي، تقريبًا. ينهمر السيل من ارتفاع حوالي عشرين مترًا، ثم يتساقط شلالاً على الصخور الكبيرة. أسفل مسقط المياه يوجد جون صغير، ويمكننا القول تقريبًا إنه أقرب إلى بركة، لكن الماء هناك عميق، أخضر، داكن، محجوز بين الصخور. إنه بعيد جدًّا عن الدرب، ونادرًا ما يقصده الناس.

لم ألمحهما فورًا، لكنّ طيورًا غافية على الأطراف الصخرية بدت مذعورة من أمر ما؛ طارت ومرت فوق رأسي، مطلقة صيحات حادة.

نعم، كانت غربانًا ذات مناقير حمراء، كيف عرفتَ ذلك؟ كانت حوالي عشرة. أحدها، ولست أدري إن كان قد إستيقظ منزعجًا أو كان أكثر عدوانية من غيره، انقض عليَّ ولامس وجهي، لدى مروره، بطرفي جناحيه. مازلت أذكر حتى الآن، وأنا أحدثك، رائحته الوحشية المقززة.

جعلتني تلك الطيور أنحرف عن دربي المعتاد. ذهبت لألقي نظرة على بركة السيل، وهناك رأيتهما، ورأساهما خارج الماء. ولا شك أنهما وثبا وثبة قوية جديرة بالفرجة، جعلت الغربان ذات المناقير الحمراء تهرب.

تُرجُمانك؟ كلا، لم أميزه فورًا. لاحقت بنظراتي الجسدين العاريين في الماء، والمتداخلين، والمتكورين في حركة لف ودوران. تَشوش ذهني إلى حدّ أنني تأخرت في الإدراك بأن وثبتهما في الماء لم تكن المأثرة الوحيدة الكبيرة. كلا! كانا يتزاوجان في الماء.

ماذا تقول؟ مجامعة؟ هذه كلمة معقدة بالنسبة لي. نحن الجبليين نقول تزاوج. لم أكن راغبًا في التلصص. احمّر وجهي الهرم. كانت تلك أول مرة في حياتي أرى فيها تزاوجًا في الماء. لم أستطع المغادرة. تعرف أن المرء في سني لا يستطيع المقاومة واتقاء ذلك. دوّم جسداهما في الموضع الأكثر عمقًا، ثم توجها نحو ضفة البركة، وتدحرجا على سرير الحجارة حيث مياه السيل الشفافة التي حمّتها الشمس فبالغت في تشويه حركاتهما البذيئة.

أحسست بالخزي، حقًا. ليس بسبب عدم قدرتي على منع عيني من تلك الفرجة المسلية، بل لأنني أدركت أنني هرم، وأن جسمي رخو، ناهيك عن عظامي البالية. عرفت أنني لن أجرب أبدًا فرحة الماء التي خاضاها.

بعد التزاوج، تناولت الفتاة من الماء تنورة مضفورة من

ورق الأشجار. عقدتها حول خصرها. لم يكن يظهر عليها التعب مثل صديقها، بالعكس، كانت تنبض حيوية، وتتسلق الجدار الصخري. كانت تغيب عن نظري بين الفينة والأخرى. تختفي وراء صخرة مغطاة بالطحلب الأخضر، ثم تلوح فوق صخرة أخرى، كما لو أنها خرجت من صدع في الصخرة. عدَّلتْ من وضع تنورتها كي تغطي فرجها جيدًا. أرادت تسلق صخرة عظيمة توجد على ارتفاع عشرة أمتار تقريبًا، فوق بركة السيل.

طبعًا لم يكن بإمكانها رؤيتي. احتطت للأمر، واختبأت وراء أجمة كثيفة الأوراق. لم أكن أعرف تلك الفتاة، لم تأت قط إلى طاحونتي. عندما وقفتْ على طرف الصخرة المتقدمة كنت على درجة من القرب بحيث تمكنتُ من التمتع بجمال جسدها العاري المبلل. كانت تلعب بتنورتها، تلفها على بطنها العاري، تحت نهديها الفتيّيْن بحلمتيْهما المحمرتين قليلاً.

عادت الغربان ذات المناقير الحمراء. حطت على الصخرة العالية والضيقة، حولها.

فجأة، شقت طريقها بين الغربان، تراجعت خطوتين أو ثلاثًا إلى الوراء، وباندفاعة مريعة، انطلقت في الهواء، بذراعين مفتوحتين مثل جناحيْ سنونوة تحوم في السماء.

اندفعت الغربان أيضًا في تلك اللحظة. لكنها، قبل التحليق بعيدًا، انقضت باتجاه الفتاة التي تحولت بدورها إلى سنونوة مندفعة في تحليقها. كان جناحاها مبسوطين أفقيًا، وثابتين؛

رفرفت مسافة قصيرة حتى حطت على سطح الماء، تباعد ذراعاها، تغلغلا في الماء، واختفيا.

بحثت عن رفيقها بنظراتي. كان جالسًا على حافة البركة، عاريًا، مغمض العينين، متكئًا بظهره على صخرة. بينما الموضع السري في جسده مرتخ، منهك، نائم.

في تلك اللحظة شعرت بأنه سبق لي رؤية ذلك الفتى في مكان ما. لكنني لم أعد أذكر أين. غادرت المكان، وفي الغابة، عندما شرعت في قطع شجرة، تذكرت أنه الترجمان الذي زارني برفقتك منذ بضعة أشهر.

لقد كان ترجمانك المزيّف محظوظًا لأن من رآه هو أنا. لا شيء يصدمني، ولم تسبق لي الوشاية بأحد. ولو رآه غيري لما وفر عليه متاعب مكتب الأمن العام، هذا ما أؤكده لك.

ما قاله ليو

ماذا أتذكر؟ إن كانت تسبح جيدًا؟ نعم، بطريقة في منتهى الروعة، الآن صارت تسبح مثل دلفين. قبل ذلك؟ كلا، تسبح مثل القرويين، مستخدمة ذراعيها فقط دون ساقيها. قبل أن أعلمها سباحة البطن لم تكن تستطيع مباعدة ذراعيها، كانت تسبح مثل الكلاب. لكن جسدها مطاوع، جسد سبّاحة حقيقية. علمتها قليلاً فصارت تجيد السباحة، بما في ذلك سباحة الفراشة؛ يتموج خصرها، ينبثق جذعها من الماء في قوس ديناميكي هوائي متقن، تنفتح ذراعاها، وتخبط قدماها الماء مثل ذيل دلفين.

ما اكتشفتْه بمفردها هو الوثبات الخطرة، قفزات الموت. أنا أخشى الأماكن العالية، لذلك لم أجرؤ على مثل تلك القفزات. كلما تسلقت صخرة عالية مدوخة من أجل القفز، في فردوسنا المائي، المتكون من بركة معزولة ذات مياه عميقة، أظلّ في الأسفل، وأنظر إليها من أسفل إلى أعلى، بشكل عمودي تقريبًا، غير أن رأسي يبدأ بالدوران، وتختلط عيناي ما بين الصخرة الناتئة وأشجار الجنكغو العملاقة التي تلوح في الخلفية مثل أخيلة الظل الصينية. تصير في منتهى الصغر، مثل

ثمرة معلقة في ذروة شجرة. تصيح نحوي بكلام، هو أيضًا حفيف ثمرة. صوت بعيد لا يكاد يدرك، بسبب دوي الماء المنهمر شلالاً على الصخور. فجأة تسقط الثمرة طافية في الهواء، تطير مخترقة الريح، باتجاهي. وفي النهاية تصير سهمًا أرجوانيًا، رشيقًا، ينقض برأسه في الماء، من دون ضجة كبيرة، ولا رشاش ماء.

كثيرًا ما كان والدي يقول، قبل دخوله السجن، بأن المرء لا يستطيع تعليم الرقص لغيره. وهو محقّ؛ والأمر ينطبق على القفز في الماء وكتابة الشعر، إذ ينبغي التوصل إليهما شخصيًا. وهناك أناس يمكنك أن تدربهم طيلة الحياة، ومع ذلك يظلون أشبه بصخرة ترتمي في الهواء، ولن يتمكنوا أبدًا من السقوط على طريقة ثمرة تطير.

كانت بحوزتي حمالة مفاتيح، أهدتني إياها أمي في أحد أعياد ميلادي، حلقة مطلية بالذهب، مع أوراق من اليشب، رقيقة، ضئيلة الحجم، مخططة بحزوز خضراء. وكنت أحملها دائمًا كتعويذة ضد المصائب. وقد علقت فيها عددًا كبيرًا من المفاتيح، مع أنني لا أملك شيئًا. ففيها مفاتيح باب بيتنا في شنغدو، ومفتاح دُرجي الشخصي تحت دُرج أمي، ومفتاح المطبخ، ومطواة صغيرة، وقصاصة أظافر... مؤخرًا أضفت إليها المفتاح العام الذي صنعته من أجل سرقة كتب صاحب النظارة الأنفية. ولقد حافظت عليه بعناية، كذكرى سطو سعيد.

ذات ظهيرة من شهر أيلول/سبتمبر، ذهبت معها إلى بركة

سعادتنا الصغيرة. وكما هو معتاد، لم يكن هناك أحد. كان الماء باردًا قليلاً. قرأت عليها قرابة العشر صفحات من الأوهام الضائعة. وهذا الكتاب لبالزاك لم يعجبني كما أعجبني الأب غوريو، ومع ذلك فعندما أمسكت بسلحفاة بين أحجار السيل، عمدت بمطواتي، إلى نقش رأسي الشخصيتين الطموحتين، بأنفيهما الطويلين، على ذبل السلحفاة، قبل إطلاق سراحها في الطبيعة.

اختفت السلحفاة بسرعة. فجأة تساءلت:

«من سيطلق سراحي ذات يوم من هذا الجبل؟»

هذا السؤال، الأحمق بالتأكيد، بعث فيَّ ألمًا قويًا، على الفور. لقد ساورتني الهموم. وعندما طويت مطواتي، ونظرت إلى المفاتيح المعلقة في الحلقة، مفاتيح منزلنا، في شنغدو، والتي لن أتمكن من استخدامها أبدًا، كدت أشرع في النحيب. لقد شعرت بالغيرة من السلحفاة التي تلاشت لتوها في الطبيعة. وفي اندفاعة يأس، قذفت بحمالة مفاتيحي بعيدًا في المياه العميقة.

عندئذ انطلقتْ في حركات سباحة فراشة، كي تستعيد حمالة المفاتيح. لكنها أطالت الغياب تحت الماء فبدأت أشعر بالقلق. كان سطح الماء ساكنًا بشكل مريب وبلون داكن، يكاد يعلن عن كارثة، ولم تظهر فقاعة ماء واحدة. صرخت: «أين أنتِ، يا الهي؟» هتفت باسمها وكنيتها «الخيّاطة الصغيرة»، ثم وثبت إلى أعماق المياه الشفافة والعميقة في بركة السيل. فجأة

رأيتها؛ كانت هناك، أمامي، تصعد ثانية وهي تنتفض على طريقة الدلفين. فوجئت برؤيتها تنفذ تلك الهزة الجميلة للجسد، مع شعرها الطويل الذي طفا على الماء.

عندما التحقت بها على سطح الماء، رأيت حمالة مفاتيحي بين شفتيها، وقد علتها قطيرات ماء مثل لآلئ براقة.

لاشك أنها الشخص الوحيد في العالم الذي مازال يعتقد بأنني سوف أنجح ذات يوم في التخلص من إعادة التأهيل، وسوف أحتاج إلى مفاتيحي.

ومنذ تلك الظهيرة صارت لعبة حمالة المفاتيح تشكل تسليتنا المعتادة في الخليج المائي الصغير. ولم تكن تلك اللعبة تعجبني لأنها تجعلني أتساءل عن مستقبلي، بل لأنها تمكنني من التمتع برؤية جسدها العاري، الفاتن، وهو ينتفض بطريقة شهوانية في الماء، مع تنورتها الورقية المرتعشة شبه الشفافة.

أما الآن فقد أضعنا حمالة المفاتيح في الماء. كان يتوجب عليَّ أن ألح عليها كي لا تقفز في محاولة ثانية خطرة للبحث عنها. ومن حسن الحظ أن الثمن لم يكن باهظًا. وفي كل الأحوال لم أعد راغبًا في العودة إلى هنالك مرة أخرى.

هذا المساء، لدى عودتي إلى القرية، كانت هناك برقية في انتظاري، تخبرني بأن أمي قد نُقلت إلى المستشفى في حالة استعجالية، وتطلب مني العودة الفورية.

سمح لي شيخ القرية، وربما يعود ذلك إلى تطبيبي الناجح لسنه، بقضاء شهر قرب أمي. أسافر غدًا صباحًا. ومن سخرية القدر أنني أعود إلى بيت أهلي بلا مفتاح.

ما قالته الخياطة الصغيرة

الروايات التي يقرؤها لي ليو تحرك فيَّ رغبة القفز في ماء السيل المنعش، دائمًا. لماذا؟ لأرتاح قليلاً، لأتنفس بطريقة أفضل! تمامًا كما يحتاج المرء أحيانًا إلى التصريح بما يثقل على قلبه!

في عمق الماء، توجد هالة كبيرة، مزرقّة، مشعشعة، لكنها ليست في منتهى الشفافية؛ لذلك يصعب تمييز الأشياء فيها. ثمة غشاء يصدم عينيك دائما. ومن حسن الحظ أن حمالة مفاتيح ليو كانت، في كل مرة، تسقط في الموضع نفسه تقريبًا، وسط البركة، وهو موضع بسعة بضعة أمتار مربعة. حتى الأحجار لا تكاد تراها عندما تلمسها؛ بعضها يكون صغيرًا بحجم بيضة ولون فاتح، مصقولة ومستديرة، ظلت موجودة منذ أعوام، وربما منذ قرون، هل تصدّق؟ وثمة أحجار أخرى، أكبر حجمًا، تشبه رؤوس البشر، وأحيانًا تكون مقوسة على شكل قرن جاموس، عن جدّ! ومن حين لآخر، حتى وإن كان ذلك نادرًا، تعثر على أحجار بارزة الزوايا، ذات رؤوس حادة وقاطعة، جاهزة لجرحك وإراقة دمك وانتزاع قطعة من لحمك. وثمة أصداف لا يعرف إلا الرب من أين أتت. لقد تحولت إلى

حجارة مغطاة بطبقة طحلبية لينة، ورغم اندماجها في الأرض الصخرية تدرك أنها أصداف.

ماذا تقول؟ لَمَ أحب القفز بحثًا عن حمالة مفاتيحه؟ آه! أعرف. أنت تجدني حمقاء مثل كلب يركض لالتقاط العظم الذي أُلقيَ له. أنا لست واحدة من فتيات بالزاك الفرنسيات. أنا ابنة جبل أحبّ إرضاء ليو، هذا كل ما في الأمر.

أتريد مني أن أحكي لك ما حدث في المرة الأخيرة؟ لقد مرّ على ذلك أسبوع على الأقل، أي قبل استلام ليو برقية أهله. وصلنا حوالي منتصف النهار. سبحنا، لكننا لم نطل السباحة، إذ اكتفينا بما يجعلنا نتسلى في الماء. بعد ذلك تناولنا خبز الذرة والقليل من البيض والفواكه التي جلبتها معي، بينما حكى لي ليو القليل من قصة البحار الفرنسي الذي تحول إلى كونت. إنها الحكاية نفسها التي استمع إليها والدي، وجعلته معجبًا بذلك المنتقم ومتعصبًا له. لم يروِ لي ليو سوى مشهد قصير، أنت تعرف، ذلك المشهد الذي يلتقي فيه الكونت بالمرأة التي خطبها في فترة شبابه، والتي أمضى بسببها عشرين عاما في السجن. فتظاهرت بأنها لا تعرفه. ولقد تصرفت بطريقة في منتهى الإتقان، جعلتها تبدو كأنها لا تتذكر ماضيها حقًا. آه! كم أغاظني موقفها.

أردنا أن نخلد إلى القيلولة قليلاً، لكنني لم أتوصل إلى إغماض عينيّ، بقيت أفكر في ذلك المشهد، أتدري ماذا فعلنا؟ مثّلنا المشهد كما لو كان ليو هو الكونت دي مونت -

كريستو، وأنا خطيبته القديمة، ونلتقي، في مكان ما، بعد مرور عشرين عامًا. كان ذلك رائعًا، حتى إنني ارتجلت الكثير من الأشياء التي كانت تخرج وحدها، هكذا، من فمي. وأجاد ليو، بدوره، تقمص شخصية البحار القديم. حافظ على حبّه لي. فكان كل ما أقوله يصيب قلبه، المسكين، كان ذلك باديًا على وجهه. رمقني بنظرة حاقدة، قاسية، غاضبة، كما لو أنني تزوجت حقًّا صديقه الذي خانه.

كانت تلك تجربة جديدة بالنسبة لي. قبل ذلك لم أكن أتصور أن في إمكان المرء تمثيل دور شخص، ليس هو، والبقاء هو هو، كما لو مثلتُ دور امرأة غنية و"راضية» في حين أكون على غير ذلك. قال لي ليو إنني أستطيع النجاح في مجال التمثيل.

بعد المسرحية، جاء دور اللعبة. سقطت حمالة مفاتيح ليو، مثل حجر، في الموضع المعتاد تقريباً. قفزت إلى الماء وبحثت، تلمّسًا، بين الحجارة والزوايا الأكثر عتمة، سنتمترًا سنتمترًا، فجأة وفي الظلمة المطبقة تماما، لمست ثعبانًا. واه! منذ أعوام كثيرة لم ألمس ثعبانًا، لكنني، حتى في الماء، تمكنت من التعرف على جلده المنزلق البارد. ابتعدت غريزيًا وصعدت إلى السطح.

من أين جاء؟ لست أدري. ربما جلبه السيل معه، لعله حنش مائي جائع يبحث عن مملكة جديدة.

بعد ذلك ببضع دقائق، ورغم اعتراض ليو، عدت إلى

الغطس، رافضةً ترك مفاتيحه للثعبان.

لكن، كم كنت خائفة هذه المرة! لقد أصابني الثعبان بالجنون: حتى وأنا في الماء كنت أشعر بالعرق يتصبب على ظهري. ولاحت الأحجار الثابتة التي ترصع القاع كأنها بدأت تتحرك فجأة، وتتحول إلى كائنات حية، حولي. هل تتصور؟ عدت إلى السطح كي أستعيد أنفاسي.

وكادت المحاولة الثالثة تتوّج بالنجاح. لقد تمكنت أخيرًا من رؤية حمالة المفاتيح، بدت لي في عمق الماء مثل حلقة غير واضحة المعالم رغم لمعانها. لكن، ما إن وضعت يدي عليها حتى أحسست بلدغة على رسغي الأيمن، لدغة أنياب شرسة عنيفة أحرقتني وجعلتني أتراجع متخلّية عن حمالة المفاتيح.

سوف تظل هذه الندبة البشعة ظاهرة على إصبعي حتى بعد خمسين سنة. اِلمسْ.

سافر ليو لمدة شهر.

وأنا أحب الاختلاء بنفسي بين وقت وآخر، كي أفعل ما أريد، وآكل عندما أرغب. وكان من شأني أن أكون الأمير السعيد الحاكم، في بيتنا المعلق على أعمدة، لو لم يكلفني ليو بمهمة حساسة عشية سفره.

- أرغب في أن تقدم لي خدمة، قال لي ليو وهو يخفض من نبرة صوته بطريقة غريبة، آمل، في غيابي، أن تكون الحارس الخاص للخياطة الصغيرة.

وهو يرى أن الكثير من شباب الجبل يطمعون فيها، بمن فيهم «الخاضعون إلى إعادة التأهيل». ولعل خصومه المفترضين يستغلون غيابه لمدة شهر كي يهجموا على دكان الخياط ويشنوا معركة شرسة «لا تنسَ، قال لي، بأنها الحسناء رقم واحد في فينيق السماء». وتتمثل مهمتي في تأمين حضور يومي إلى جانبها، على هيئة حارس لبوابة قلبه، وذلك من أجل عدم ترك أية فرصة لمنافسيه كي يتدخلوا في حياته الخاصة، ويتسللوا إلى منطقة لا يملكها إلا ليو، قائدي.

قبلت المهمة التي فاجأتني وأغرتني. يالها من ثقة عمياء يبرهن عليها ليو تجاهي، قبل سفره، بطلبه هذه الخدمة مني! كان ذلك كما لو أنه عهد إليّ بكنز ثمين، بغنيمة حياته، من دون أن يرتاب في احتمال سطوي عليها.

في ذلك الوقت لم تكن تساورني سوى رغبة واحدة: أن أكون جديرًا بثقته. تخيلت أنني قائد عام لجيش منهزم، مكلف باجتياز صحراء واسعة ومخيفة، من أجل مرافقة زوجة صديقه المفضل، وهو جنرال آخر. وكل ليلة أتسلح بمسدس ورشاش وأذهب للحراسة أمام خيمة تلك المرأة الجليلة، كي أُبعد الوحوش الشرسة، الطامعة في لحمها، فيما عيونها المتقدة بالشهوة تومض في الظلام مثل بقع فوسفورية. وبعد مرور شهر، خرجنا من الصحراء، بعد المرور بتجارب مريعة: العواصف الرملية، ندرة الغذاء، شح الماء، عصيان الجنود... وفي الأخير، عندما تركض المرأة نحو صديقي الجنرال،

ويحتضن أحدهما الآخر، أفقد وعيي وأنهار من شدة التعب والعطش، وذلك على ذروة آخر كثيب رملي.

هكذا، وغداة رحيل ليو، بعد تلقيه البرقية التي تدعوه إلى الالتحاق بالمدينة، بدأ يظهر، كل صباح، شرطي يجتاز الدرب المؤدي إلى قرية الخياطة الصغيرة. وجهه صارم الملامح ومشيته سريعة. إنه شرطي مثابر. الفصل خريف والشرطي يتقدم مسرعًا مثل زورق شراعي هبت عليه ريح مواتية. بعد بيت صاحب النظارة الأنفية، ينعطف الدرب نحو الشمال، ويجد الشرطي نفسه مجبرًا على السير في مواجهة الريح، منحنيَ الظهر، مطأطئ الرأس، مثل متجول عنيد ومجرب. ولدى بلوغ الممرّ الخطر الذي سبق لي الحديث عنه، والذي يبلغ عرضه ثلاثين سنتمترًا، مع جرفين مدوّخين على حافتيه، ذلك الممرّ الإجباري من أجل الحجّ إلى الجَمال، يخفف من سرعته، لكنه لا يتوقف، أو يضطرّ إلى المشي على أربع. وهكذا ينتصر يوميًا في معركته ضد الدوار. فيجتاز الممرّ سائرًا بخطوات مترنحة قليلاً، محدقًا في العينين البارزتين واللامباليتين للغراب ذي المنقار الأحمر، الذي لا يفارق صخرته نفسها في الطرف الآخر من الممرّ.

أية زلة قدم يمكن أن تتسبب في سقوط شرطيّنا البهلوان، لتتهشم عظامه في قاع الجرف الأيمن أو الأيسر.

ترى، أيلجأ ذلك الشرطي، بلا زي، إلى الحديث مع الغراب؟ أتراه يحمل إليه كسرة خبز؟ أنا أقول، لا. إنه في

غاية التأثر، نعم، وسوف يلازمه هذا التأثر وقتًا طويلاً وتحفظ ذاكرته تلك النظرة اللامبالية التي يسلطها عليه الطائر. وحدها بعض الآلهة تبدي مثل تلك اللامبالاة. غير أن الطائر لا يتوصل إلى ثني شرطينا عن قناعته، لا سيما وأنه لا يوجد في ذهنه سوى أمر واحد: مهمته.

لنُشِرْ إلى أن السلة الخيزرانية التي كان يحملها ليو في الماضي، هي الآن على ظهر شرطينا. وثمة رواية لبالزاك، بترجمة فو لي، مخفية دائمًا في قاع السلة تحت أوراق، وخضار، وحبوب أرز أو ذرة. في بعض الصباحات، عندما تلوح السماء جد واطئة، يتملكك انطباع، وأنت تنظر إلى البعيد، بأن هناك سلة خيزرانية تتسلق الدرب بمفردها، ثم تختفي داخل غيمة رمادية.

كانت الخياطة الصغيرة تجهل وجودها تحت الحراسة، وتعتبرني مجرد قارئ بديل.

ومن دون أدنى إدعاء، لاحظتُ أن قراءتي، أو طريقتي في القراءة، تروق لسامعتي أكثر من قراءة سلفي. ذلك أن قراءة صفحة كاملة بصوت عال تبدو لي مملة بما لا يطاق، فقررت اللجوء إلى قراءة تقريبية، أي أنني أقرأ في البداية صفحتين أو ثلاثاً، أو فصلا قصيرًا، بينما تكون هي منصرفة إلى عملها على آلة الخياطة. ثم، وبعد عملية اجترار قصيرة، أطرح عليها سؤالاً أو أطلب منها أن تخمن بما سيحدث. وبعد تقديم إجابتها أحكي لها عما يوجد في الكتاب، فقرة فقرة تقريبًا. ولا

أستطيع، بين وقت وآخر، تفادي اللجوء إلى إضافة أشياء صغيرة ذات اليمين وذات الشمال، لنقل إنها لمسات شخصية صغيرة، لكي تسليها الحكاية أكثر. وبلغ بي الأمر حدّ اختلاق مواقف، أو حشر حلقات من رواية أخرى، وذلك عندما أشعر بأن الأب بالزاك الهرم يلوح مرهقًا.

لنتحدث عن مؤسس هذه السلالة من الخياطين، عن سيد الدكان العائلي. تقتصر إقامة الشيخ الخياط في بيته على يومين أو ثلاثة، عادة، تتخلل تجواله في القرى المجاورة. ولقد اعتاد زياراتي اليومية بسرعة. وأكثر من ذلك فإنه، مع طرد جمهرة الراغبين في طلب القرب والمتخفين في هيئات زبائن، صار أفضل مشارك في مهمتي. لم ينس الليالي التسع التي أمضاها في بيتنا مستمعًا إلى الكونت دي مونتي- كريستو. ولقد تجددت التجربة في بيته أيضًا. فكان مستمعًا جزئيًا لرواية ابن العم بونس وهي حكاية سوداء بالأحرى، وتغود إلى بالزاك أيضًا، فتابعها باهتمام، وإنْ كان ذلك بشغف أقل. ومن دون تعمد، صادف ثلاث مرات، شخصية الخياط سيبو، الثانوية، وهو يُقتل على نار هادئة من طرف الحداد ريموننك.

ما من شرطي في العالم استشرس في أداء مهمته مثلي. كنت أساهم، بين فصلين من رواية ابن العم بونس، في الأعمال المنزلية بكل أريحية؛ فأجلب الماء من البئر المشتركة، بحمل سطلين خشبيين كبيرين على كتفيَّ، وذلك من أجل ملء الخزان العائلي للخياطة الصغيرة. ويحدث أن أجهز

لها الطعام في مرات كثيرة، فأكتشف بذلك بعض المتع المتواضعة في عدة تفاصيل تتطلب التحلي بصبر الطباخ: غسل الخضار أو اللحم، وتقطيعهما، قطع الحطب، ورعاية النار بتحايل حتى لا تنطفئ في أية لحظة. وأحيانًا لا أتردد في النفخ على الجمر لأسعّر النار بأنفاس فتوتي اللجوجة، داخل دخان كثيف، خانق، وغبار لا يطاق. ظل كل شيء يسير بسرعة. ولم تلبث الكياسة والمجاملة والاحترام، المستلهمة من روايات بالزاك، أن حولتني إلى غسالة ثياب تفعل ذلك يدويًا في الجدول، حتى في بداية الشتاء، عندما تكون الخياطة الصغيرة مرهقة بالطلبيات.

هذا التدجين الملموس والحاني أدى بي إلى فهم أكثر حميميةً للأنوثة. والبلسمين، هل تذكرك بشيء؟ من السهل العثور عليها لدى باعة الأزهار وفي شبابيك البيوت. إنها زهرة صفراء أحيانًا، وحمراء قانية، غالبًا. تكبر ثمرتها وتتحرك ثم تنضج، لتنفجر مع أدنى ملامسة، قاذفة ببذورها. لقد كانت تشكل الإمبراطورة الرمزية، أو شعار جبل فينيق السماء. إذْ يمكن، حسب الاعتقاد السائد، تمييز رأس الفينيق، وجناحيه، وقائمتيه، وحتى ذيله، بتفحص أشكال زهورها.

في نهاية ذات ظهيرة صادف أن كنا مختليين في المطبخ، بعيدًا عن أنظار الفضوليين. وهناك تولى الشرطي، الذي راكم على عاتقه أعباء القارئ والحكواتي والطباخ والغسالة، مهمة غسل أصابع الخياطة الصغيرة، بعناية، على طريقة مزيِّنةٍ دقيقة

ومثابرة، في طلي كل ظفر من أظافرها بالعصارة المركزة المستقطرة من زهور البلسمين المسحوقة.

لم تكن أصابعها ذات علاقة بأصابع الفلاحات؛ إذْ أنها لم تشوه بأعمال الحقول؛ وكانت الإصبع الوسطى، في اليد اليسرى، تحمل ندبة وردية، متأتية، بلا ريب، من لدغة نابيْ ثعبان بركة السيل.

- أين تعلمتَ هذا الاختصاص الأنثوي؟ سألتني الخياطة الصغيرة.

- سبق لوالدتي أن حدثتني عنه. وحسب رأيها فإنكِ صباح الغد، عندما تنزعين قطع القماش الصغيرة التي تغطي أطراف أصابعك، سوف تظهر أظافرك بلون أحمر قان، ولماع.

- ويدوم طويلاً؟

- حوالي عشرة أيام.

كان من شأني أن أطلب منها السماح لي بطبع قبلة على أظافرها الحمراء، صباح الغد، مكافأة على عملي المتميز، غير أن ندبة إصبعها الوسطى التي لم تندمل بعد، أجبرتني على احترام المحظورات التي يُمليها وضعي، والوفاء لالتزاماتي الفروسية التي أدين بها لقائد مهمتي.

في ذلك المساء، لدى خروجي من بيتها حاملاً سلة الخيزران وفي داخلها رواية ابن العم بونس، أدركت مدى الغيرة التي أثيرها في وسط شباب القرية. فما إن بلغت أول

الدرب حتى لاحت خلفي مجموعة تتكون من حوالي خمسة عشر قرويًا، ظلوا يتبعونني بصمت.

التفت ورمقتهم بنظرة، غير أن روح العداء المرسومة على وجوههم الشابة فاجأتني. فحثثت الخطى.

فجأة علا صوت وراء ظهري، مقلّدًا لهجة المدينة بطريقة ساخرة مبالغ فيها.

ـ آه! أيتها الخياطة الصغيرة، اسمحي لي بأن أغسل لك الثياب.

شعرت بالخجل لإدراكي الواضح بأنه كان يقلدني، ويحاكيني بسخرية، ويهزأ مني. التفتّ كي أميز ممثل الدور في هذه الكوميديا الساخرة: لقد كان أعرج القرية، وهو أكبر الجماعة سنًا، وقد بدا ملوحًا بمقلاع كما لو أنه عصا قيادة.

تظاهرت بأنني لم أسمع شيئًا، واستأنفت دربي، بينما ظل الجماعة يطوقونني، ويدفعونني بقوة، ويكررون جملة الأعرج، ثم ينفجرون بضحكة داعرة، صاخبة، ومتوحشة.

وسرعان ما تحدد الإذلال أكثر، في هيئة جملة قاتلة، نطق بها أحدهم مصوبًا إصبعه نحوي:

ـ أيها الغسال القذر لـ «كيلوتات» الخياطة الصغيرة!

يا لها من صدمة بالنسبة لي! ويا لها من دقةٍ تكلَّم بها خصمي! لم أستطع النطق بكلمة واحدة، ولا إخفاء انزعاجي، بما أنني غسلت أحد «كيلوتاتها» فعلاً.

في تلك اللحظة، استبقني الأعرج، وقطع طريقي ثم أنزل «كيلوته» كاشفًا عن عضو ذابل ومشعّر.

ـ خذ، أريد منك أن تغسل «كيلوتي» أيضًا! صاح مع ضحكة استفزازية داعرة، ووجهٍ شوَّهتْه الإثارة.

رفع «كيلوته» المصفرّ المائل إلى السواد، والذي بدا مرقعًا ووسخًا، وشرع يلوّح به فوق رأسه.

بحثت عن كل الشتائم التي أعرفها، لكنني بلغت حدًّا من الغيظ والتشنج، لم أقدر معه على «التفوه» بشتيمة واحدة. صرتُ أرتجف، وتملكتني رغبة في البكاء.

ما أعقب ذلك لا أتذكره جيدًا. كل ما أذكره هو أنني تهيأت للاندفاع بقوة، لوَّحْتُ بسلتي، وارتميت على الأعرج. أردت ضربه على الوجه لكنه تمكن من تفادي الضربة، وتلقاها على كتفه اليمنى فقط. وفي تلك المعركة ضد الكثرة هزمني العدد، وأمسك بي اثنان قويان. تمزقت سلتي، سقطت، انقلبت، وكشفت عن محتوياتها أرضًا: سالت بيضتان مهشمتان على ورقة كرنب، ولطخ السائل غلاف ابن العم بونس الذي ثوى في الغبار.

فجأة خيم الصمت؛ ذلك أن المعتدين، أي كوكبة الراغبين في الخياطة الصغيرة، ذهلوا، رغم أنهم أميون كلهم، من ظهور هذا الشيء الغريب: الكتاب. اقتربوا منه، وتحلقوا حوله، باستثناء الشابين الممسكين بذراعيَّ.

قرفص الأعرج بلا كيلوت، فتح الغلاف، ورأى صورة بالزاك بالأبيض والأسود، مع لحية طويلة وشارب يخالطهما الشيب.

- هذا كارل ماركس؟ سأل أحدُهم الأعرجَ، لا شك أنك تعرفه، لأنك سافرت أكثر منا.

تردد الأعرج في الإجابة.

- ربما لينين؟ قال آخر.

- أو ستالين، من دون بدلته العسكرية.

انتهزت فرصة الحيرة الجماعية وسحبت ذراعيّ باندفاعة أخيرة، ثم ارتميت، بطريقة أقرب إلى الغطس، على ابن العم بونس بعد أن أبعدت القرويين المتحلقين حوله.

- لا تلمسوه، صحت وكأن الأمر يتعلق بقنبلة توشك على الانفجار.

لم يكد الأعرج يدرك ما يجري عندما خطفت الكتاب من بين يديه وانطلقت مسرعًا، متوغلاً في الدرب.

رافق هروبي وابل من الحجارة والصياح لمدة طويلة «يا غاسل الكيلوتات القذر! أيها الجبان! سوف نعيد تأهيلك!» فجأة أصابت أذني اليسرى حصاة مقذوفة بواسطة المقلاع، وشعرت بألم عنيف جعلني أفقد السمع جزئيًا، على الفور. وضعت يدي تلقائيًا على أذني فتلطخت أصابعي بالدم.

ازدادت الشتائم خلفي على مستوى الصوت ودرجة الدعارة. كانت أصداء الأصوات المرتطمة بجنبات الصخور تدوي في الجبل، وتتحول إلى تهديد بالتمزيق والعقاب الدموي، والإنذار بكمين جديد. ثم توقف كل شيء. وخيم الهدوء.

في درب العودة، قرر الشرطي الجريح التخلّي عن مهمته مكرهًا.

تلك الليلة كانت طويلة بشكل خاص. بدا لي بيتنا المعلق على أعمدة، مقفرًا، رطبًا، أكثر عتمة مما في السابق. كانت هناك رائحة بيت مهجور تخالط الهواء؛ رائحة يمكن تمييزها بسهولة: باردة، زنخة، محملة بالعفونة، قوية الحضور والإدراك والإلحاح. لقد بدا البيت كأنه غير مسكون. وفي تلك الليلة حاولت تناسي أوجاع أذني اليسرى بإعادة قراءة روايتي المفضلة جان- كريستوف، على ضوء مصباحين أو ثلاثة. غير أن الدخان العدواني المنبعث من تلك المصابيح لم يتمكن من طرد تلك الرائحة؛ تلك الرائحة التي زادت في شعوري بالضياع.

كف نزيف الأذن، لكنها ظلت مرضوضة، متورمة، موجعة، تمنعني من القراءة. تحسستها بلطف فعاد الألم وأثار غيظي من جديد.

يالها من ليلة! مازلت أذكرها حتى اليوم، لكنني، حتى بعد مرور أعوام كثيرة، لم أتوصل قط إلى فهم رد فعلي. بت تلك الليلة أتقلب من الألم، على فراشي الذي بدا لي مفروشًا بالإبر، وعوض التفكير في كيفية الانتقام وقطع أذنيْ الأعرج الحسود، صارت تلك العصابة تتراءى لي وقد هاجمتني من جديد. رأيتني مربوطًا إلى شجرة وهم يضربونني ويعذبونني، فيما أشعة الشمس الأخيرة تنعكس على نصل مطواة شهرها

الأعرج، ولم تكن من تلك السكاكين التقليدية المعتادة لدى الجزارين؛ كانت شفرتها في منتهى الطول والمضاء، والأعرج يداعب نصلها بهدوء، ممرّرًا أصابعه عليه. ثم يرفع المطواة، وفي صمت مطبق، يبتر أذني اليسرى. تسقط أرضًا، ترتدّ، ثم تعود إلى السقوط بينما جلاّدي يمسح الشفرة الطويلة الملطّخة بالدم. كان وصول الخياطة الصغيرة باكية يضع حدًّا لعملية التعذيب، فتلوذ عصابة الأعرج بالهرب.

عندئذ أرى تلك الفتاة ذات الأظافر الحمراء القانية المطلية بالبلسمين تفك وثاقي. وتدعني أحشر أصابعها في فمي وألحسها بطرف لساني الملتوي والحارق. آه! يا لعصير البلسمين المركَّز، كان لذلك الشعار الذي يرمز إلى جبلنا، وقد تخثر على أظافرها، مذاق عذب، ورائحة أقرب إلى رائحة المسك، يبعثان في جسدي الإثارة. ولدى اتصال الطلاء الأحمر بلساني، يكتسب قوة، ويصير فاقعا أكثر، ثم يلين ويتحول إلى حمم بركانية حارقة، تنتفخ وتصفر وتزوبع في فمي الفائر مثل فوهة حقيقية.

بعد ذلك يشرع سيل الحمم في الانتقال مرتحلاً بحُرية، كأنه في رحلة بحث واستقصاء. فيتدفق على امتداد جذعي المرضوض، ويتلوى فوق هذا السهل القارّي، ويلتف حول حَلَمتيَّ، يتسلل إلى بطني، يتوقف عند سرتي، يلج إلى داخلي بفعل دفعات لسانها، ويتلاشى في تعرجات شراييني وأحشائي، لينتهي به الأمر إلى العثور على الدرب الموصل إلى فحولتي

المستثارة، الفائرة، الفوضوية، وقد بلغت سن التحرر وباتت ترفض الانصياع للضغوطات الصارمة والمنافقة التي حددها الشرطي لنفسه.

نَاسَ آخر قنديل وانطفأ لنضوب النفط فيه، تاركًا الشرطي منبطحا في الظلام، ممارسا خيانة ليلية، وملطخا سرواله الداخلي.

كان المنبه، ذو الأرقام الفسفورية، يشير إلى منتصف الليل.

ـ لديَّ مشكلة، قالت لي الخياطة الصغيرة.

كان ذلك غداة اعتداء الداعرين الراغبين فيها. كنا في بيتها، داخل المطبخ، يغطينا دخان أخضر، تارة، وأصفر طوراً، مع رائحة الأرز الذي يطهى في القدر. كانت تقطع الخضار فيما أنا أعتني بإذكاء النار، ووالدها الذي عاد من إحدى جولاته يعمل في الغرفة الأساسية؛ لذلك يمكن سماع الضجة المألوفة والمنتظمة المنبعثة من آلة الخياطة. ويبدو أنه لم يعلم، شأنه شأن ابنته، بالحادث الذي تعرضت له. ولقد فوجئت بأنهما لم ينتبها إلى الرضوض في أذني اليسرى. كنت مستغرقا في البحث عن مبرر لتقديم استقالتي إلى درجة أن الخياطة الصغيرة اضطرت إلى تكرار جملتها كي تقتلعني من تأملاتي.

ـ عندي مشكلة كبيرة تزعجني.

ـ مع عصابة الأعرج؟

ـ كلا.

ـ مع ليو؟ سألتها، على أمل أن أصير منافسًا له.

ـ ولا هو، قالت بنبرة حزينة، أنا نادمة، لكن فات الأوان.

ـ عمَّ تتحدثين؟

ـ أعاني من الغثيان. تقيأتُ هذا الصباح أيضا.

في تلك اللحظة لمحت بحزن، دمعات تنبجس من عينيها، وتسيل بصمت على وجهها، ثم تسقط قطرة قطرة، على أوراق الخضار وعلى يديها ذات الأظافر المطلية بالأحمر.

ـ لو علم أبي بالأمر لقتل ليو، قالت وهي تبكي بهدوء ومن دون نحيب.

انقطعت عنها الدورة الشهرية منذ شهرين. ولم تصارح ليو بذلك، رغم أنه المسؤول أو المذنب بالنسبة لهذا الخلل الوظيفي. أثناء رحيله، أي قبل شهر، لم يكن القلق قد ساورها بعد.

للوهلة الأولى تملكني الاضطراب، من رؤية دموعها غير المنتظرة وغير المعتادة، أكثر من مضمون اعترافها. رغبت في احتضانها لمواساتها، بسبب تألمي لرؤيتها تتألم، غير أن وقع قدمي والدها على دواسة آلة الخياطة دَوَّى مثل تذكير بالواقع.

لم يكن ألمها قابلاً للمواساة بسهولة. ورغم جهلي شبه التام بمسائل الجنس فقد أدركت معنى هذين الشهرين من تأخر الدورة الشهرية.

وسرعان ما أصبت بعدوى اضطرابها فذرفْتُ بدوري بضع

دمعات، من دون أن تنتبه إلى ذلك، كما لو أنها ابنتي، كما لو كنتُ أنا، وليس ليو، من مارس معها الجنس تحت أشجار الجنكغو أو في مياه البركة الصغيرة الصافية. أحسست بالعطف القويّ عليها، وبالقرب الشديد منها. تمنيت أن أقضي حياتي حاميًا لها. كنت مستعدا للموت أعزب إذا كان ذلك يخفف من قلقها. وللزواج منها، إذا سمح القانون، وإن كان زواجا عرفيا، حتى تتمكن من وضع مولود صديقي، بكل هدوء.

ألقيت بنظرة على بطنها المختفي تحت كنزة حمراء مدروزة يدويا، فلم ألمح سوى الاختلاجات المنتظمة والمؤلمة، الناجمة عن تنفسها الصعب وبكائها الصامت. عندما تشرع امرأة في البكاء بسبب غياب دورتها الشهرية يصير من المستحيل إيقافها عن البكاء. تملكني الخوف وشعرت برجفة تسري في ساقيَّ.

لقد نسيت أمراً أساسياً، أي أن أسألها إنْ كانت ترغب في أن تصير أماً في الثامنة عشرة من العمر. وكان سبب هذا النسيان بسيطا: استحالة الاحتفاظ بالطفل استحالة مطلقة. ما من مستشفى، ما من قابلة في الجبل، يمكنهما القبول بخرق القانون، عبر الإشراف على وضع طفل لشخصين غير متزوجين. ولا يستطيع ليو الاقتران بالخياطة الصغيرة إلا بعد سبع سنوات، لأن القانون يحظر الزواج قبل سن الخامسة والعشرين. زاد غياب الأمل حدة بعدم وجود مكان غير خاضع للقانون يمكن أن يهرب إليه روميو، وجولييت الحامل،

خاصتنا، ليعيشا على طريقة الشيخ روبنسون كروزو، يساعدهما شرطي سابق تحوّل إلى شخصية «جمعة». فكل سنتمتر مربع في هذا البلد هو تحت المراقبة اليقظة لـ «دكتاتورية البروليتاريا» التي تغطي الصين كلها مثل شبكة رحبة الاتساع، لا تنقصها حلقة واحدة.

عندما استعادت هدوءها قلَّبنا مختلف الاحتمالات الممكنة لإجراء عملية إجهاض، وتجادلنا عدة مرات وراء ظهر والدها، باحثين عن الحل الأكثر كتمانا وطمأنينة، والذي من شانه إنقاذ الزوجين من عقوبة سياسية، إدارية، ومن فضيحة أكيدة. ويبدو أن القانون الثاقب قد احتاط لكل شيء كي يحاصرهما: فهما لا يستطيعان وضع طفل قبل الزواج، والقانون يمنع الإجهاض.

في تلك اللحظة المهمة لم استطع تفادي الإعجاب بتبصر صديقي ليو. فمن حسن الحظ أنه كلفني بمهمة حماية، ولقد توصلت، مدعومًا بذلك الدور، إلى إقناع زوجته اللاشرعية بعدم اللجوء إلى المطبّبين بالأعشاب في الجبل، إذْ لا يخشى أن يسمّموها فحسب، بل قد يلجؤون إلى الوشاية بها أيضًا. وبعد ذلك رسمت لها لوحة سوداوية، لاحتمال إصابتها بإعاقة، تجعلها مكرهة على الزواج من أعرج القرية، فأقنعتها بلاجدوى القفز من سطح منزلها، أملاً في الإجهاض، لأن ذلك محض حماقة.

في صباح الغد، وكما اتفقنا، قصدت مدينة ينغ جنغ مستكشفًا، وهي مدينة المقاطعة، وذلك من أجل سبر

احتمالات الخدمة التي يمكن أن يقدمها قسم أمراض النساء في المستشفى.

ينغ جنغ، ولا شك أنكم مازلتم تتذكرونها، هي تلك المدينة التي يبلغ صغر حجمها حدًا يمكن معه لكل سكانها أن يشموا رائحة لحم العجل بالبصل عندما يطهى في مطعم البلدية. يوجد المبْنَيان اللذان يتكون منهما المستشفى الصغير، على هضبة، وراء ملعب كرة السلة التابع للمدرسة الثانوية، حيث حضرنا عروض أفلام في الهواء الطلق. المبنى الأول مخصص للمعاينات الخارجية، ويوجد على سفح الهضبة؛ وعلى مدخله توجد صورة كبيرة للرئيس ماو مرتديًا بزة عسكرية، محركًا يده عشوائيًا باتجاه المرضى المصطفّين في طابور، برفقة أطفال يصرخون ويبكون. أما المبنى الثاني فهو ينتصب على ذروة الهضبة، ويتكون من ثلاثة طوابق خالية من الشرفات، ومبنية بالطابوق الأبيض المطلي بالكلس؛ وهو مخصص لإيواء المرضى، فقط.

هكذا، وذات صباح، بعد يومين من السير وليلة بيضاء أمضيتها وسط قمل أحد النّزل، تسللت متخفّيًا مثل جاسوس إلى مبنى المعاينات. ولكي أذوب نكرة في حشد الفلاحين ارتديت سترتي القديمة المفصَّلة من جلد خروف. وما إن وضعت قدمي في ذلك المكان الطبي المألوف لديَّ منذ الطفولة، حتى أحسسْت بالضيق وبدأ العرق يتصبب مني بغزارة. في الطابق الأسفل، وفي نهاية ممر ضيق، داكن،

رطب، وعابق برائحة دهليزية مقزّزة نوعًا ما، رأيت نساء ينتظرن جالسات على صفّيْن من الأرائك المرتّبة على امتداد الجدران؛ ولغالبيتهن بطون منتفخة، وبعضهن يتألم بأنين خافت. وهناك انتبهت إلى كلمتين هما «أمراض النساء» مكتوبتيْن بطلاء أحمر، على لوحة خشبية، معلّقة على باب مكتب موصد بإحكام. بعد بضع دقائق انفرج الباب قليلاً كي يتيح الخروج لمريضة في منتهى الهزال تحمل في يدها وصفة طبية، ودخول امرأة أخرى. فلم أكد أتوصل إلى تمييز شبح طبيب يرتدي بدلته البيضاء ويجلس خلف مكتبه، حتى أُوصِد الباب من جديد.

أجبرتني حقارة ذلك الباب المنيع على انتظار انفتاحه اللاحق. كنت في حاجة إلى معرفة ملامح ذلك الطبيب النسائي. لكنني ما إن التفتّ حتى رأيت النساء يرمقنني بنظرات ساخطة! كنّ في منتهى الغيظ، وهذا ما أقسم لكم عليه!

تيقّنت أن صدمتهن متأتّية من سنّي. كان ينبغي عليّ التنكّر في زي امرأة، مع دسّ وسادة في بطني، من أجل التظاهر بالحمل. ذلك أن الشاب ذا التسعة عشر عامًا، بسترته التي من جلد خروف، والواقف في ممرّ النساء، بدا دخيلاً مزعجًا. كنّ ينظرن إليّ مثل منحرف جنسيًا، أو متلصّص يحاول التجسّس على أسرار أنثوية.

يا لَطول انتظاري! والباب لا يتحرك. شعرت بالحرارة وابتلّ قميصي عرقًا. خلعت قميصي من أجل المحافظة على

نصّ بالزاك الذي نسخته على الوجه الداخلي من الجلد. بدأت النسوة يتهامسن بطريقة غريبة. فلُحْن في ذلك الممرّ المعتم، مثل متآمرات بدينات يحكْن مؤامراتهنّ في ضوء الغسق. كأنهن يتهيّأن لعملية هجوم واعتداء.

- ماذا تفعل هنا؟ صاح بي صوت عدواني من امرأة ضربت على كتفي.

نظرت إليها. كانت ذات شعر قصير، ترتدي سترة رجالية، وسروالاً، وتعتمر قبّعة عسكرية خضراء مرصّعة بميدالية حمراء تمثل صورة ماو المذهبة، كعلامة خارجية على وعيها الأخلاقي. ورغم حملها بدا وجهها ممتلئًا بالدمامل المتقيّحة أو المندملة. شعرت بالشفقة على الطفل الذي ينمو في أحشائها.

قرّرتُ التظاهر بالغباء، لأغاظتها قليلاً. مكثت أرمقها حتى كررت سؤالها بغباء، فعمدْتُ، ببطء شديد كما في التصوير السينمائي البطيء، إلى وضع يدي اليسرى خلف أذني، مقلّدًا حركة الأصم الأبكم.

- أذنه مزرقّة ومتورّمة، قالت امرأة جالسة.

- معالجة الأذنين ليست هنا! زعقت صاحبة القبّعة كما لو كانت تخاطب أطرش. اذهبْ للمعاينة في قسم العيون، فوق!

يا لها من فوضى! انفتح الباب وهنّ مازلن يتناقشن حول من يعالج الأذنيْن؛ طبيب العيون أم طبيب الأنف والحنجرة.

في هذه المرة أسعفني الوقت بنقش ملامح طبيب النساء في ذاكرتي، بشعره الطويل الذي وخطه الشيب، وتقاطيع وجهه البارزة المرهقة. كان في الأربعين من عمره، وسيجارته بين شفتيه.

بعد ذلك التعرّف الأوّلي قمت بجولة طويلة، أي أنني ظللت أجوب الشارع الوحيد في المدينة. لا أدري كم مرّة سرت حتى آخر الشارع واجتزت ملعب كرة السلة وعدت إلى المستشفى. ولم أنقطع عن التفكير في ذلك الطبيب. بدا أصغر سنًّا من أبي. ولا أدري إنْ كان يعرفه أم لا. قيل لي إنه يستقبل مرضاه في قسم أمراض النساء يومي الاثنين والخميس، وينكبّ، في بقية الأيام، على الاهتمام بأقسام الجراحة، والأمراض البولية، والهضمية، بالتناوب. من المحتمل أنه تعرّف على والدي، على الأقل بالاسم، لأنه تمتّع بشهرة لا بأس بها في مقاطعتنا قبل أن يُصنَّف عدوًّا للشعب. حاولت تخيّل والدي أو والدتي بدلاً منه، داخل ذلك المستشفى التابع للمقاطعة، في استقبال الخيّاطة الصغيرة، وابنهما الحبيب وراء الباب الذي كُتب عليه قسم أمراض النساء. لا شك أن ذلك قد يؤدي إلى أكبر كارثة في حياتهما، أسوأ من الثورة الثقافية! ومن شأنهما طردي من دون استفسار عن المتسبب في الحمل، ومقاطعتي إلى الأبد بسبب تلك الفضيحة. يصعب فهم السبب في كون «المثقفين البرجوازيين» الذين اضطهدهم الشيوعيون، يستوون في القسوة مع مضطهديهم.

في منتصف ذلك النهار تناولت الغداء في المطعم. وندمت مباشرة على تلك الرفاهية التي قلَّصتْ من ميزانيتي كثيرًا. لكن المطعم كان المكان الوحيد الذي يستطيع فيه المرء الاقتراب من أناس لا يعرفهم. ومن يدري؟ ربما التقيت فيه بأحد الزّعران العارفين بكل حيَل الإجهاض.

طلبت صحنًا من لحم الديك المحمَّر مع الفلفل الأخضر، وصحفة من الأرز. واستغرقتْ وجبتي التي تعمّدتُ إطالتها، أكثر من الوقت الذي يستغرقه شيخ أدرد الفم. غير أن أملي بدأ يتضاءل مع تضاؤل اللحم في صحني. ذلك أن زعران المدينة الأفقر مني، أو الأشد بخلاً، لم يشرّفوا المطعم بحضورهم.

تبيّن أن بحثي في مجال أمراض النساء غير مثمر، بعد مرور يومين. والشخص الوحيد الذي توصلت إلى طرح الموضوع عليه كان الحارس الليلي في المستشفى. وهو شرطي سابق طرد من مهنته قبل سنة، لأنه ضاجع فتاتيْن. مكثت في حجرة حراسته حتى منتصف الليل، لعبنا الشطرنج ونحن نروي مغامراتنا العاطفية. طلب مني أن أعرِّفه على الفتيات الخاضعات لإعادة التأهيل في جبلنا، لأنني ادّعيت معرفتي الجيدة بهنّ. غير أنه رفض مساعدة صديقتي التي تشكو من «اضطراب في دورتها الشهرية».

ـ لا تحدّثني عن ذلك، قال لي مرتعبًا. لو اكتشفتْ إدارة المستشفى أنني متورط في مثل هذه الأمور لاتهمتْني بتكرار الجرم وأرسلت بي إلى السجن مباشرة، من دون أدنى تردد.

في اليوم الثالث، نحو منتصف النهار، تيقنت من استحالة الدخول إلى مكتب طبيب الأمراض النسائية، وتأهبت للعودة إلى الجبل عندما لمعت بذاكرتي ذكرى شخصية، اخترقت ذهني فجأة: قسّيس المدينة.

لا أعرف اسمه، لكننا أعجبنا بشعره الفضيّ الطويل المتطاير في الهواء عندما حضرنا العروض السينمائية. كان يتحلى بشيء ما، أرستقراطي، حتى وهو ينظف الشارع مرتديًا زيّ عمال التنظيفات الأزرق، ممسكًا بمكنسة خشبية طويلة، وكذلك عندما يعمد الجميع، بمن فيهم الأطفال الذين في الخامسة من العمر، إلى شتمه وضربه أو البصاق عليه. لقد مُنع من ممارسة وظيفته الدينية منذ عشرين عامًا.

كلما فكرت فيه تذكرت طرفة سمعتها عنه: ذات يوم، فتش الحرس الأحمر بيته فعثروا على كتاب مخفي تحت وسادته، مكتوب بلغة أجنبية لا يعرفها أحد. والمشهد ليس بعيدًا عن مشهد عصابة الأعرج المتحلِّقة حول كتاب «ابن العم بونس. وتطلب الأمر إرسال تلك الغنيمة إلى جامعة بكين ليتبيّن أن الكتاب هو كتاب التوراة باللغة اللاتينية. وقد كلف القسيس ثمنًا غاليًا لأنه أجبر، منذئذ، على كنس الشارع، وهو الشارع نفسه، من الصباح إلى المساء، ثماني ساعات يوميًا، مهما كانت حالة الطقس. وهكذا انتهى به الأمر إلى أن صار قطعة ديكور متحركة في المشهد.

بدت لي مراجعة قسيس من أجل مسألة إجهاض فكرة

شاذة. ألستُ في طريقي إلى فقدان التوازن بسبب الخيّاطة الصغيرة؟ فجأة تذكرت أنني لم أشاهد الشعر الفضي لعامل التنظيفات ذي الحركات الآلية، منذ ثلاثة أيام.

سألت بائع سجائر عما إذا كان القسيس قد انتهى من عمل السُّخرة.

ـ كلا، قال لي، المسكين، إنه يشرف على الموت.

ـ ممَّ يشكو؟

ـ السرطان. لقد عاد ابناه من المدينة الكبيرة التي يسكنان فيها، ونقلاه إلى مستشفى المقاطعة.

ركضت من دون أن أعرف لماذا. وعوض اجتياز المدينة ببطء اندفعت في ركضٍ قطعَ أنفاسي. ولما بلغت قمة الهضبة التي ينتصب فوقها مبنى الاستشفاء قررت أن أجرب حظي لأحصل على نصيحة من القسيس المحتضر.

في الداخل صدمت أنفي وخنقتني رائحة الأدوية، مختلطة بعفونة المراحيض العمومية سيئة التنظيف، وبالدخان والدسم. حتى ليكاد المرء يحس بأنه في مخيم للاجئين إبان الحرب: ذلك أن غرف المرضى تستخدم أيضًا كمطابخ. فكانت هناك طناجر، وألواح خشبية للقص والتقطيع، وقلايات، وخضار، وبيض، وزجاجات تحتوي على صلصة الصويا، والخل، والملح، مرمية على الأرض عشوائيًا بجانب أسرّة المرضى، وبين القِصاع والمناصب التي عُلقت فيها زجاجات نقل الدم. ولما كانت الساعة وقت غداء فقد انحنى البعض على الطناجر

المدخنة، متنافسين بقضبانهم على المعكرونة الشريطية؛ بينما انهمك آخرون في قلي البيض الذي كان ينش ويفرقع في الزيت الحامي.

حيرني هذا الديكور. لم أكن أعلم أن مستشفى المقاطعة يفتقر إلى مطعم، وأن على المرضى تدبّر أمور طعامهم، والحال أن المرض يعقِّد مهمتهم، فما بالك بمن كانت أجسادهم مشوهة. كان مشهدًا فوضويًا صاخبًا يقدمه أولئك الطباخون المهرّجون المبرقشون بلصقات حمراء وخضراء وسوداء، وضمادات نصف محلولة تخفق فوق بخار الطناجر.

وجدت القسيس المحتضر في غرفة ذات ستة أسرّة. كان خاضعًا للحقن المتواصل، وحوله ابناه وزوجتاهما، وكلهم في حوالي سن الأربعين، وإلى جانبهم امرأة عجوز تبكي وتجهز له الطعام على سخّان نفطي. تسللتُ بالقرب منها وتربعت.

- هل أنت زوجته؟ سألتها.

هزت رأسها بالإيجاب. كان ارتعاش يديها من الشدة بحيث تناولت منها البيض وتوليت فقسه.

بدا ابناها المرتديان سترتين على طريقة ماو، زرقاوين ومزرّرتين حتى الياقة، أقرب إلى هيئة موظفين أو مستخدمين في إدارة شؤون الجنائز، ومع ذلك كانا يتصنعان هيئة صحافيْين، منكبيْن على تشغيل مسجل صوت صدئ، ذي طلاء أصفر مقشر، وصرير متواصل.

فجأة انطلق صوت حاد ومصمّ من المسجل ودوّى مثل صوت إنذار، أخفق في إسقاط صحفات المرضى الآخرين في

الغرفة وكان كل واحد منهم يتناول طعامه على فراشه.

توصل الابن الأصغر إلى خنق تلك الضجة الشيطانية، بينما أدنى أخوه ميكروفونًا من شفتي الكاهن.

- قل شيئًا ما، يا بابا، توسّل الابن البكر.

لم يبق شيء يذكر من شعره الفضي وتغيرت ملامح وجهه. وبلغ به النحول حدًّا لم يبق معه إلا الجلد على العظم، وهو جلد رقيق مثل ورقة صفراء كامدة اللون. أما جسده الذي كان قويًا، في السابق، فقد تقلص كثيرًا. كان متكورًا تحت غطائه يصارع الألم. وتوصل في النهاية إلى فتح جفنيه. فاستُقبلتْ علامة الحياة تلك، بدهشةٍ مشوبة بالفرح لدى المحيطين به. تم تقريب الميكرفون مرة أخرى من فمه. فشرع الشريط الصوتي يلفّ بصرير زجاج مهشم تحت جزمات.

- بابا، ابذلْ جهدًا يا بابا، قال ابنه، سنسجل صوتك آخر مرّة من أجل أحفادك.

- لو أنك تتمكن من ترديد جملة للرئيس ماو فإن ذلك سوف يكون أمرًا رائعًا. جملة واحدة أو شعار، هيّا! وهكذا يعرفون أن جدهم لم يعد رجعيًا، وأن دماغه قد تغير! صاح الابن الذي تحول إلى مهندس صوت.

مرت رجفة لا تكاد تدرك على شفتي القسيس، لكن صوته لم يكن مسموعًا. وظل يهمس بكلمات لم يفهمها أحد، مدة دقيقة. حتى المرأة العجوز اعترفت، حائرة، بعجزها عن فهم تلك الكلمات.

ثم عاد إلى غيبوبته.

أعاد ابنه الشريط إلى الخلف واستمعت العائلة كلها إلى الرسالة الغامضة.

- هذه لغة لاتينية، أعلن الابن البكر، لقد أدى صلاته الأخيرة باللاتينية.

- لم يتغير، قالت العجوز وهي تمسح العرق المتصبب على جبين القسيس بمنديل.

وقفتُ واتجهت صوب الباب من دون أن أنبس ببنت شفة. وبالمصادفة لمحت طبيب الأمراض النسائية بمريلته البيضاء يمرّ أمام الباب مثل شبح. وكما في التصوير البطيء رأيته يسحب آخر نفس في سيجارته، وينفث الدخان ثم يرمي بعقبها أرضًا، ويتلاشى.

اخترقت الغرفة مندفعًا. فصدمت قنينة صلصلة صويا، وتعثّرت بمقلاة فارغة مرمية على الأرض. وهذه العراقيل أخّرت وصولي إلى الممرّ، إذ لم يعد الطبيب هناك.

بحثت عنه بابًا بابًا، سائلاً كل من التقيت لدى مروري. وفي النهاية أشار لي مريض، بإصبعه، نحو باب غرفةٍ، في آخر الممرّ.

- رأيته يدخل هناك، إلى الغرفة الفردية؛ يبدو أن عاملاً في مصنع ميكانيك «الراية الحمراء» قد بترت أصابعه الخمس بإحدى الآلات.

عندما دنوت من الغرفة سمعت صرخات رجل يتوجع رغم

الباب المغلق. دفعته بهدوء، فانفتح بسهولة، ومن دون أن يصدر أي صوت.

كان الطبيب يضمد يد الجريح الجالس على السرير، متصلب العنق ورأسه مستند إلى الجدار خلفه. كان رجلاً في حوالي الثلاثين من العمر، عاريَ الصدر، مفتول العضلات، أسمر البشرة، قوي الرقبة. دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفي. كانت يده المدمّاة مغطاة بطبقة أولى من الضماد سرعان ما تخضّبتْ بدمه النازف بقطرات غليظة في طشت خزفي على الأرض، قرب سريره، مُصْدِرًا جلبةَ ساعة حائطية غير منتظمة الدقات، تتخلل أنينه.

كانت للطبيب ملامح شخص أرِق، تمامًا كما رأيته آخر مرة في مكتبه. لكنه بدا أقل لا مبالاة، أقل «بعدًا». فتح لفة شاش كبيرة وضمد بها يد الرجل، من دون أن ينشغل بحضوري. حتى سترة جلد الخروف التي أرتديها لم تلفت انتباهه، نظرًا لاستنفاره.

أخرجت سيجارة من جيبي وأشعلتها، ثم اقتربت من الفراش، وبحركة رشيقة تقريبًا، وضعت السيجارة، معتبرًا إياها بمثابة منقذ محتمل لصديقتي، في فم الطبيب، وليس بين شفتيه. نظر نحوي من دون أن يتكلم، وشرع يدخن متابعًا عملية التضميد. أشعلت سيجارة أخرى، وقدمتها للجريح الذي تناولها بيده اليمنى.

ـ ساعدْني، قال الطبيب، مقدّمًا لي أحد طرفي الشاش، شدَّهُ بقوة.

سحبنا الشاش، وكل واحد منا في أحد طرفي السرير، مثل رجلين يحزمان حقيبة بواسطة حبل.

خفّ النزيف، وكف الجريح عن الأنين. ترك سيجارته تسقط أرضًا، ونام فجأة، بتأثير البنج، حسب الطبيب.

ـ من أنت؟ سألني وهو يلف كبة الشاش حول اليد الجريحة المضمدة.

ـ أنا ابن طبيب يعمل في مستشفى المقاطعة، قلت له. وفي الواقع، هو لم يعد يعمل فيه الآن.

ـ وما اسمه؟

أردت أن أذكر اسم والد ليو، غير أن اسم والدي أفلت من فمي. أعقب ذلك صمت مزعج. شعرت بأنه لا يجهل والدي فحسب بل ومعاناته السياسية أيضًا.

ـ ماذا تريد؟ سألني.

ـ إنها أختي... لديها مشكلة... مشكلة في دورتها الشهرية، منذ ثلاثة أشهر.

ـ مستحيل، قال لي ببرود.

ـ لماذا؟

ـ ليس لوالدك ابنة. اذهب أيها الكذاب الصغير!

لم ينطق بالجملتين الأخيرتين صارخًا، لم يشر لي، إلى الباب، بإصبعه، لكنني أدركت أنه كان في غضب حقيقي؛ وكاد يرميني بعقب سيجارته.

احمرّ وجهي خجلاً، والتفت إليه، بعد بضع خطوات، ثم

سمعت نفسي أقول له:

- أقترح عليك صفقة: إذا ساعدت صديقتي، سوف تكون مدينة لك بذلك طيلة حياتها، أما أنا فأعطيك كتابًا لبالزاك.

ما أشد الصدمة التي حدثت له وهو يسمع ذلك الاسم مضمّدًا يدًا مشوهة في مستشفى المقاطعة النائي عن العالم. وانتهى به الأمر إلى فتح فمه بعد لحظات حيرة وتردد.

- سبق لي القول إنك كذاب. فكيف عساك تمتلك كتابًا لبالزاك؟

ومن دون إجابة، خلعت سترتي ذات جلد الخروف، قلبتها، وأظهرت له النص الذي نسخته على الوجه الداخلي، وكان الحبر أكثر تفسخًا عنه في السابق، لكنه ظل مقروءًا.

أثناء قراءته أو بالأحرى تفحصه، أخرج علبة سجائره وقدم لي واحدة. اطلع على النص وهو يدخن.

- إنها ترجمة فو لي، همس. أعرف أسلوبه. وهو مثل والدك، المسكين، عدوّ للشعب.

هذه الجملة أبكتني. تمنيت التماسك لكنني لم أنجح. صرت أبكي مثل طفل. وأعتقد أن تلك الدموع لم تكن من أجل الخياطة الصغيرة، ولا من أجل مهنتي المنجزة، بل من أجل مترجم بالزاك الذي لا أعرفه. أليس في ذلك أكبر تكريم، وأكبر نعمة، يمكن أن يحصل عليها مثقف في هذا العالم؟

فاجأني الانفعال الذي انتابني في تلك اللحظة، وأدى، في ذاكرتي، إلى طرد الأحداث التي تلت هذا اللقاء، تقريبًا. بعد

أسبوع، وفي يوم خميس حدّده الطبيب المتعدد الاختصاصات وعاشق الأدب، جاءت الخياطة الصغيرة، متنكرة في زي امرأة ثلاثينية، مع شريط أبيض ملفوف حول جبينها. واجتازت عتبة غرفة العمليات، بينما المسؤول عن الحمل لم يعد بعد. مكثت جالسًا طيلة ثلاث ساعات في الممرّ مترصدًا كل صوت يظهر من وراء الباب: جلبة بعيدة، غامضة، مخنوقة، جريان ماء حنفية، صرخة حادة من امرأة مجهولة، أصوات لا تُميز للممرضات، خطوات مسرعة...

تمت العملية على ما يرام. وعندما سُمح لي أخيرًا بدخول قسم الجراحة، وجدت الطبيب ينتظرني في قاعة محملة برائحة الكربون، وفي آخرها كانت الخياطة الصغيرة جالسة على سريرها ترتدي ثيابها بمساعدة ممرضة.

- كان الجنين أنثى، إذا كنت راغبًا في معرفة ذلك، همس لي الطبيب.

ثم فرقع عود كبريت، وبدأ يدخن.

وفضلاً عن اتفاقنا، أي كتاب «أورسولا ميروي»، وهبْت للطبيب رواية «جان - كريستوف» أيضًا، وكان كتابي المفضل في ذلك الوقت. بترجمة السيد فو لي نفسه.

ورغم صعوبة المشي كان ارتياح صاحبة العملية لدى خروجها من المستشفى، أشبه ما يكون بمتهم مهدد بالمؤبد، ثم ثبتت براءته فغادر المحكمة.

رفضت الخياطة الصغيرة أخذ قسط من الراحة في النُّزل،

وألحت على الذهاب إلى المقبرة التي دفن فيها القسيس قبل يومين، لأنه، في رأيها، هو الذي قاد خطاي إلى المستشفى، وحدد، بيدٍ لا مرئيةٍ، لقائي مع طبيب الأمراض النسائية. اشترينا، بما تبقى لديّ من مال، كيلوغرامًا من المندرينا ووضعناه تقدمة أمام قبره الإسمنتي البسيط، والبائس تقريبًا. أسفْنا لعدم إجادة اللغة اللاتينية كي نؤبنه باللغة التي تكلم بها إبان احتضاره، من أجل الصلاة لربه أو التوجه باللعنة إلى حياته التي أمضاها في تنظيف الشارع. ترددنا في التعاهد أمام قبره على تعلم اللاتينية، ذات يوم، والعودة لمحادثته بتلك اللغة. وبعد نقاش طويل قررنا عدم القيام بذلك، لأننا لا نعرف أين نجد كتابًا تعليميًا (ربما تطلب الأمر عملية سطو جديدة على منزل صاحب النظارة الأنفية؟) وأهم من ذلك، تعذّر العثور على أستاذ يدرس اللغة اللاتينية. وفي محيطنا القريب لم يكن يوجد أي صيني آخر يعرف تلك اللغة.

على شاهدة قبره حُفر اسمه مع تاريخيْن، من دون أية إشارة إلى مهنته أو وظيفته الدينية. كل ما هنالك صليب مرسوم بلون أحمر متداول، كما لو كان صيدلانيًا أو طبيبًا.

أقسمنا على العودة، ذات يوم، إذا صرنا غنيّيْن وأُلغيَ حظر الأديان، لتشييد نصب منقوش وملوّن لرجل ذي شعر فضي مكلل بالشوك، مثل يسوع، لكن من دون أن تكون يداه متصالبتين. وبدلاً من تسمير كفيه سوف يكون في يديه مقبض مكنسة طويلة.

أرادت الخياطة الصغيرة، بعد ذلك، أن تذهب لزيارة معبد بوذي مغلق ومحظور، كي تقذف ببعض الأوراق المالية عبر السور، حمدًا لرحمة السماء. لكننا كنا نفتقر إلى فلس واحد.

وأخيرًا... حان الوقت كي أصف لكم الصورة النهائية في هذه الحكاية. وسوف يستغرق ذلك مدّة كافية لسماع فرقعة ستة أعواد كبريت، ذات ليلة من ليالي الشتاء.

مرت ثلاثة أشهر على إجهاض الخيّاطة الصغيرة. في الظلام يُسمع هبوب خافت للريح، وجلبة داخل حظيرة الخنازير. لقد عاد ليو إلى جبلنا منذ ثلاثة أشهر.

الهواء يعبق برائحة جليد. فرقع عود ثقاب في جلبة خاطفة، مدوّية وباردة. وأدّى الوميض الأصفر إلى تشويش الشبح الأسود لبيتنا المرفوع على أعمدة، والقابع على بعد أمتار، فارتعش في إهاب الليل.

كاد عود الثقاب ينطفئ في منتصف المسافة ويختنق في دخانه الأسود، لكنه استعاد أنفاسه، نائسًا، واقترب من «الأب غوريو» الجاثم على الأرض، أمام البيت المرفوع على أعمدة. تلوّت الأوراق التي لحستها النار، وتكورت على بعضها بعضًا، بينما اندفعت الكلمات نحو الخارج. أُوقِظَتِ الفتاة الفرنسية المسكينة من حُلمها الشبيه بحلم سائر في نومه، بفعل ذلك الحريق، طالبةً النجاة، لكن بعد فوات الأوان. وعندما

التقت ابن عمها الحبيب، ابتلعتها ألسنة اللهب مع المتيَّمِين بها وبأموال ميراثها، وقد تحولوا كلهم إلى دخان.

أشعلت ثلاثة أعواد ثقاب أخرى، محارق «ابن العم بونس»، و«الكولونيل شابير»، و«أوجيني غرانديه». أما عود الكبريت الخامس فقد أمسك بـ«كوازيمودو» الذي كان هاربًا فوق بلاط «نوتردام دي باريس» وعلى ظهره إسميرالدا. سقط العود السادس على «مدام بوفاري». غير أن الشعلة لجأت إلى استراحة يقظة ضمن جنونها الخاص، ولم تشأ البدء بالصفحة التي كانت فيها إيمًا في غرفة أحد فنادق رُوان، تدخن فوق الفراش، وعشيقها الشاب إلى جانبها بينما تهمس له: "سوف تهجرني...» ذلك العود الخانق والانتقائي في آن، اختار الهجوم على خاتمة الكتاب، في المشهد الذي خيل إليها، قبل موتها بقليل، أنها تسمع أعمى ينشد:

كثيرًا ما يؤدي طقسُ يومٍ عليل

بالفتاة إلى الحلمِ بالحبِّ الجميل

لحظةَ بدأت كمنجة تعزف لحنًا جنائزيًا، جاءت هبة ريح لتفاجئ الكتب المشتعلة؛ تطاير رماد إيمًا الجديد، واختلط برماد مواطنيها المتفحمّين، ليرتفع متمّوجًا في الهواء.

غطى الرماد الكمنجة وانعكست النار على أوتارها المعدنية اللمّاعة. صوت تلك الكمنجة صادر عنّي. وعازف الكمنجة هو أنا.

أما ليو، مشعل الحرائق، ابن طبيب الأسنان المشهور،

ذلك العاشق الرومانسي الذي زحف على أربع ليجتاز الممرّ الخطِر، ذلك المعجب الكبير ببالزاك، فهو الآن ثمل، مقرفص، محّدق في النار، مفتون، وربما مسحور بتصاعد ألسنة اللهب التي ترقص فيها كلمات أو كائنات كانت في الماضي عزيزة على قلبينا، قبل تحوّلها إلى رماد. كان يبكي حينًا وينفجر ضاحكًا حينًا آخر.

لم يحضر تضحيتنا أي شاهد. حتى سكان القرية الذين ألِفوا صوت الكمنجة، فضّلوا بالتأكيد أسَّرتهم الدافئة. رغبنا في دعوة صديقنا الهرم، صاحب الطاحونة، كي يرافقنا بآلته ذات الأوتار الثلاثة، وينشد «لازماته العتيقة» الداعرة، مُمَوّجًا طيات بطنه العديدة والدقيقة. لكنه كان مريضًا. وحتى قبل يومين، عندما زرناه، كان قد بدأ يشكو من نزلة برد.

تواصلت عملية الإعدام حرْقًا. وانصاع الكونت دي مونت - كريستو لجنون ليو، رغم نجاحه قديمًا في الهروب من سجن القلعة الشامخة وسط البحر. كذلك لم يفلت أي رجل أو امرأة ممن سبقت لهم الإقامة في حقيبة صاحب النظارة الأنفية.

وما كنا لنخاف حتى لو فاجأنا زعيم القرية في تلك اللحظات. وربما عمدنا، في نشوتنا، إلى إحراقه حيًّا، كما لو كان، بدوره، شخصية روائية.

على أية حال، لم يكن ثمة غيرنا، نحن الاثنين. حتى الخياطة الصغيرة رحلت ولن تعود لرؤيتنا أبدًا.

كان رحيلها صاعقًا ومباغتًا في آن. وشكّل مفاجأة للجميع.

تطلّب منّا الأمر أن ننبش مطولاً في ذاكرتنا المثقلة بالصدمة بحثًا عن نذر شؤم، كثيرًا ما كانت ذات علاقة بالثياب، تشير إلى اقتراب ضربة قاتلة.

قبل شهرين تقريبًا، قال لي ليو إنها فصّلت حمالة صدر انطلاقًا من رسم عثرت عليه في رواية «مدام بوفاري». وكنت قد لاحظت له في الإبّان بأنها أول قطعة ملابس أنثوية داخلية في جبل فينيق السماء تُدوَّن في سجل الحوليات المحلية.

- صار هاجسها الجديد، قال لي ليو، أن تصير شبيهة بفتاة المدينة. سوف تتأكد بأنها صارت، عندما تتكلم، تقلد لهجتنا.

عزَوْنا تفصيلها لحمالة الصدر، إلى دلال التأنق البريء لدى فتاة في مقتبل العمر، لكن، لست أدري كيف نسينا القطعتين الجديدتين الأخيرتين في خزانة ملابسها. وهما من القطع التي يستحيل عليها ارتداؤها في هذا الجبل. في البداية عادت إلى سترتي الماوية الزرقاء ذات الأزرار الذهبية الثلاثة على كميها، والتي ارتديتها مرة واحدة لدى زيارتنا إلى شيخ الطاحونة. أجرت عليها تصليحات وتعديلات وحوّلتها إلى سترة نسائية، لم تتخلص تمامًا من النموذج الرجالي، بجيوبها الأربعة وياقتها القصيرة. وكان عملها رائعًا. لكنه، في ذلك الوقت، لم يكن ليلبس إلا من قبل امرأة تعيش في المدينة الكبيرة. بعد ذلك طلبت من والدها أن يشتري لها من متجر ينغ جنغ حذاء رياضيًا ناصع البياض، وهو لون لا يمكنه الصمود أكثر من ثلاثة أيام في أوحال الجبل المنتشرة في كل مكان.

أتذكر أيضًا حلول العام الغربي الجديد في تلك السنة. ولم يكن يوم عيد حقًا بل يوم عطلة وطنية. وكعادتنا، أنا وليو، فقد ذهبنا إلى بيتها. وكدت لا أتعرف عليها. إذ ما إن دخلت حتى تصورت أنني في حضرة فتاة تدرس في إحدى المدارس الثانوية في المدينة. اختفت جديلتها الطويلة المعتادة التي تربطها بشريط أحمر، ورأيت بدلاً منها شعرًا قصيرًا قُصّ على مستوى الأذنين، الأمر الذي أضفى عليها جمالاً آخر، جمال مراهقة عصرية. كانت توشك على الانتهاء من تصليح سترة ماو. انشرح ليو لذلك التحول الذي لم يكن يتوقعه. وبلغ انشراحه الأعمى ذروته عندما بدأت تقيس السترة التي انتهت من تعديلها: وهكذا فإن السترة الخشنة والذكورية، وقصّة شعرها الجديدة، وحذاءها الرياضي الناصع البياض الذي حل محلّ خفّها المتواضع، كلّ ذلك أكسبها نوعًا غريبًا من الشهوانية، مع مظهر أنيق، للإعلان عن موت الريفية الحسناء، والخرقاء قليلاً. عندما رآها ليو على تلك الهيئة الجديدة غمرته سعادة فنان يتأمل عمله المنجز. همس في أذني:

ـ شهور المطالعة لم تذهب سدًى.

كانت عاقبة ذلك التحول، أو إعادة التأهيل، لكن على طريقة بالزاك، ترنّ بطريقة لا واعية في جملة ليو، غير أنها لم تدفع بنا إلى توخّي الحذر. أكنّا غائبيْن عن الوعي بسبب الاكتفاء الذاتي؟ أبالغْنا في تقدير فضائل الحبّ، أم ترانا، بكل بساطة، لم نتوصل إلى إدراك جوهر الروايات التي قرأناها لها؟

ذات صباح من شهر شباط/فبراير بعد ليلة الإعدام الجنونية بالحرق، حرثنا، أنا وليو، بواسطة جاموس لكل واحد، حقل ذرة تمَّ تحويله مؤخرًا إلى حقل أرزّ. في حوالي العاشرة صباحًا، تعالت صرخات القرويين لتقطع عملنا وتعود بنا إلى بيتنا المرفوع على أعمدة، حيث كان الخياط الهرم في انتظارنا.

بانت لنا نذر الشؤم، منذ البداية، لظهوره من دون آلة الخياطة، وما إن اقتربنا منه حتى تملكنا الخوف من وجهه المتغضّن وقد حرثته تجاعيد جديدة، ووجنتيْه اللتين صارتا ناتئتين وقاسيتين، وشعره الأشعث.

- ارتحلت ابنتي، هذا الصباح، منذ الفجر، قال لنا.

- ارتحلت؟ سأله ليو، لم أفهم.

- وأنا كذلك. لكن، هذا ما فعلتْه.

وحسب رأيه فقد تمكنت ابنته من الحصول، خفية، على كل الأوراق والشهادات الثبوتية الضرورية، من اللجنة الإدارية في دائرة البلدية، بقصد الشروع في رحلة طويلة. وأخبرته ليلة البارحة فقط بأنها تنوي تغيير حياتها وتجريب حظها في مدينة كبيرة.

- سألتُها إن كنتما على علم بسفرها، تابع يقول، فأخبرتني بأنكما تجهلان ذلك، وسوف تراسلكما حالما تستقر في مكان ما.

- كان عليك أن تمنعها من السفر، قال ليو بصوت ضعيف، لا يكاد يُسمع.

لقد انهار تمامًا.

- لا شيء يمكن فعله، أجابه الشيخ منهكًا، لقد قلت لها أيضًا: إذا سافرتِ، لا أريدك أن تضعي قدميك هنا، ثانية.

عندئذ انطلق ليو في ركض جامح ويائس، عبر الدروب الوعرة، لإدراك الخياطة الصغيرة. في البداية، تبِعْتُه عن قرب سالكًا دروبًا مختصرة عبر الصخور. كان المشهد شبيهًا بأجد أحلامي الذي سقطت فيه الخياطة الصغيرة في الهاوية المحاذية للممر الضيق الخطير. ركضنا، أنا وليو، في دوامة لم يعد فيها أي درب، انزلقنا على طول الجنبات الصخرية من دون اكتراث للتهشم والتمزق إربًا إربًا. وظللت فترة غير مدرك إن كنت أركض في حلمي القديم أم في الواقع، أم كنت أركض وأحلم. كان للصخور ذلك اللون الرمادي الداكن نفسه، وكانت مغطاة بطحالب رطبة، زلقة.

بدأتُ أتخلف عن ليو، شيئا فشيئاً، ومن شدة الركض، والتمايل على الصخور، والقفز من حجر إلى حجر، عادت إليَّ خاتمة حلمي القديم، مع تفاصيل دقيقة. ودوّى في رأسي نعيق الشؤم المتأتي من غراب غير مرئي، ذي منقار أحمر، يحوم في الفضاء. خيّل إليّ أننا سنعثر، بين لحظة وأخرى، على جسد الخياطة الصغيرة ثاوياً تحت صخرة، ورأسها منغرز في بطنها، مع شقين عريضين نازفين، يبلغان جبينها الجميل الملامح. كانت حركات قدمي تشوش دماغي. لم أدرك الدافع وراء هذا الركض الخطير؛ صداقتي مع ليو؟ حبي لصديقته؟ أم

أنني متفرج لا يريد تفويت خاتمة الحكاية؟ لم أفهم لماذا، غير أن ذكرى ذلك الحلم القديم تملكتني طيلة الدرب. تمزقت فردة حذائي.

بعد ثلاث ساعات أو أربع، أمضيتها في الركض، والعدو، والخبب، والانزلاق، والسقوط، وصولا إلى الانقلاب، وعندما رأيت الخياطة الصغيرة تلوح جالسة فوق حجر مشرف على قبور محدبة الشكل، تنفست الصعداء لأنني أحسست بالتوصل إلى تحقيق رقْيَة خلصتني من كابوسي القديم.

خففت سرعتي، ثم انهرت أرضًا، على حافة الدرب، منهكاً، ببطن خاوية مقرقرة، ورأس تملّكها دوار خفيف.

كان الديكور مألوفاً بالنسبة إلي. ففي هذا المكان التقيت والدة صاحب النظارة الأنفية، قبل بضعة أشهر.

قلت في نفسي من حسن الحظ أن الخياطة الصغيرة قررت الاستراحة هنا قليلا. لعلها أرادت توديع أجدادها في طريقها. شكراً للرب. لقد انتهى الركض قبل أن أموت أو أجن.

كنت على ارتفاع حوالي عشرة أمتار، وهذا الوضع مكّنني من مشاهدة لقائهما من فوق. بدأ ذلك عندما التفَتَتْ صوب ليو الذي كان يقترب منها. ومثلي تماماً، انهار على الأرض خائر القوى.

لم أصدق عينيَّ: تجمد المشهد في صورة ثابتة. فالفتاة بسترتها الرجالية، وشعرها القصير، وحذائها الأبيض، ظلت جالسة على صخرتها، لا تتحرك، بينما بدا الفتى المتمدد

أرضًا ينظر إلى السحب فوق رأسه. لم أقدّر أنهما يتحادثان، أو أنني لم أسمع شيئا على الأقل. ربما كنت أنتظر مشهداً عنيفاً لا يخلو من صراخ، واتهامات، وتوضيحات، وبكاء، وشتائم، لكن لا شيء غير الصمت. ولولا دخان السيجارة المتصاعد من فم ليو، لظننت أنهما تحوّلاَ إلى تمثالين.

ورغم أن الغضب، أو الصمت، يتشابهان، في مثل هذه الظروف، وتصعب المقارنة بين أسلوبين اتهاميَّين لهما تأثيران مختلفان، فقد خمنت بأن ليو قد أخطأ في اختيار استراتيجيته، أو أنه استسلم مبكراً إلى عجز الكلمات عن التعبير.

أوقدت ناراً، تحت صخرة جاسئة، بواسطة أغصان وأوراق جافة. أخرجت حبات بطاطا حلوة من الجراب الصغير الذي حملته معي، ودفنتها تحت الرماد.

ولأول مرة، وبطريقة سرية، شعرت بالحقد تجاه الخياطة الصغيرة. فرغم اكتفائي بدور المتفرج، أحسست بالخيانة، تمامًا مثل ليو، ولم يكن ذلك ناجمًا عن ارتحالها، بل لأنها لم تعلمني بنيّة السفر؛ كما لو أنها محت من ذاكرتها اشتراكنا السري في عملية إجهاضها، ولست إلا صديق صديقها، وسوف أبقى كذلك، في نظرها.

تناولت غصنًا وغرزت طرفه في حبة بطاطا حلوة داخل الكومة المدخنة. حركتها، نفخت عليها، ثم نزعت عنها التراب والرماد. فجأة تناهى إلى مسمعي، من الأسفل، طنين بعض الجمل الصادرة عن فمَيْ التمثالَيْن. كانا يتحادثان بصوت

خفيض لا يخلو من توتّر. سمعتُ اسم بلزاك من دون وضوح. وتساءلت: ما الذي حشره في هذه الحكاية أيضًا؟

في لحظة ابتهاجي بانقطاع الصمت، بدأت الصورة الثابتة تتحرّك: وقف ليو، ونزلت هي، قافزةً من صخرتها. لكنها، بدلاً من الارتماء في حضن عاشقها اليائس، تناولت صرّة ثيابها، وانطلقتْ بخطواتٍ حثيثة.

ـ انتظري، صرخْتُ ملوِّحًا بحبّة البطاطا الحلوة. تعالي لتأكلي حبّة بطاطا! لقد شويْتُها من أجلك.

صرختي الأولى جعلتْها تنطلق راكضةً على الدّرب، والثانية دفعتْ بها إلى الأبعد، والثالثة حوّلتْها إلى طائر حلّق بلا تردّد، وأخذ حجمه يتضاءل قليلاً قليلاً، إلى أن توارى تمامًا.

التحق بي ليو حذو النار. جلس شاحب اللون من دون أية شكوى أو احتجاج. حدَثَ ذلك كلّه قبل ساعات من تلك العملية الجنونية؛ عملية الإعدام حرْقًا.

ـ لقد رحلَتْ، قلتُ له.

ـ تريد الذهاب إلى مدينة كبيرة، قال لي. لقد حدثتْني عن بلزاك.

ـ وبعد ذلك؟

ـ قالت لي إن بلزاك جعلها تفهم شيئًا: جمال المرأة كنز لا يُقدَّر بثمن.

محمد علي اليوسفي

* محمد علي اليوسفي من مواليد مدينة باجة بالجمهورية التونسية 3 مارس 1950.
* متزوج وله أنسي ودانية.
* درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بتونس ثم سافر إلى الشرق العربي حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة دمشق وتخرج في قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية.
* تابع الدراسات العليا في الاختصاص ذاته بالجامعة اللبنانية خلال الحرب الأهلية.
* وفي الأثناء مارس الترجمة والكتابة والصحافة الثقافية في أبرز الصحف والمجلات السورية واللبنانية والفلسطينية.
* عاد إلى تونس ليستقر بها بعد عشرين عاما أمضى ثمانية منها في جزيرة قبرص.
* له عدة مؤلفات في الشعر والرواية والنقد، كما أنجز العديد من الترجمات في الرواية والسيرة والسينما وغير ذلك.

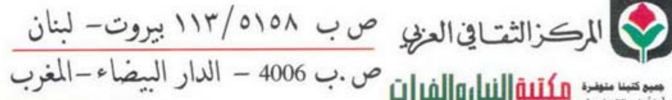
داي سيجي

بالزاك والخياطة الصينية الصغيرة

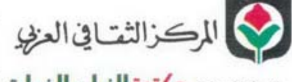
إن تفاصيل هذه الرواية تتمحور حول الممانعة التي نشأت ضد الأيديولوجية المهيمنة في عهد ماو تسي تونغ. فالراوي وصديقه يؤديان بالتناوب دور شهرزاد الأدب الغربي. و«صاحب النظارة الأنفية» يخفي حقيبة ملأى بالروايات الغربية الممنوعة، وأمّه الشاعرة المصنّفة على أنها «عدوّة الشعب» تتظاهر بحياكة الصوف بينما هي «تكتب قصائد في رأسها».

ففي مجتمع حيث يُنفى المثقفون إلى الريف «من أجل إعادة تأهيلهم من قِبَل الفلاحين الفقراء»، تعيش تلك الخياطة الصينية الصغيرة التي سوف يحوّلها الاستماع إلى روايات بالزاك تحويلاً جذرياً.

داي سيجي: كاتب من أصل صيني يعيش في فرنسا منذ عشرين عاماً، حازت روايته هذه على جائزة «غونكور» كما حازت روايته الأخيرة «عقدة واي» على جائزة «فيمينا».



المركز الثقافي العربي ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت – لبنان
ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب



ISBN: 9953-68-001-9